رِسالةُ النَّجاة؛ آخِرُ الزّمانِ مِن مَنظورٍ عِرفانيّ

د. علي أكبر خانجاني

رسالةُ النّجاة؛ آخِرُ الزّمانِ مِن منظورٍ عِرفانيّ

تأليف: د. علي أكبر خانجاني

ترجمة: سيّد عبد الرّزاق سيادت (الجابري)

مراجعة وتنقيح: حُسين عَبّاسي

الفهرس:

الفصلُ الأوّل: في معنى التكنولوجيا (معرفةُ الجَحيم)

في المعنى التأويلي / الهرمنوطيقي للتكنولوجيا

في المعنى التاريخي للتكنولوجيا

في المعنى البشري للتكنولوجيا

في المعنى الديني للتكنولوجيا

الفصلُ الثّاني: وجودُ العشق

الفصلُ الثّالث: فلسفةُ التاريخ في القرآن أو فلسفةُ البؤس وفلسفةُ التحديث

الفصلُ الرّابع: فلسفةُ المُهَل والفُرَص

الفصلُ الخامس: العبودية؛ الأنواعُ والمراتب

الفصلُ السّادس: معرفةُ الزّمانِ العرفاني

الفصلُ السّابع: ما هو العمرُ ؟

الفصلُ الثّامن: زمنُ الوحدة

الفصلُ التّاسع: منطقُ آخرِ الزّمان

الفصلُ العاشِر: آخِرُ زمانِ الأُسرة

الفصلُ الحادي عشر: آخِرُ زمانِ الأنظمة

الفصلُ الثّاني عشر: شريعةُ آخِرِ الزّمان

الفصلُ الثّالث عشر: رزقُ آخِرِ الزّمان

الفصلُ الرّابع عشر: الحركةُ الجوهرية أو الزّمان المحمّدي

الفصلُ الخامِس عشر: وحدةُ آخِر الزّمان

الفصلُ الأوّل

في معنى التكنولوجيا (معرفةُ الجحيم)

١. في المعنى التأويلي / الهرمنوطيقي للتكنولوجيا

التكنولوجيا لغوياً من أصل Techno الإغريقية وتعني الإظهار والإفراغ والإبجهار والبروز. وكما عرض هيدجر بالتفصيل المملّ، فإنّ مفردة Logy تعني المعرفة وبهذا فيكون المصطلح بمعنى عِلم الإظهار والإبجهار والبروز.

والتكنولوجيا علمٌ بشري بامتياز وهو من صنع البشرِ نفسه، وإذا كان كذلك، فتكون التكنولوجيا عِلماً يختصّ بظهور سرائر النفس البشرية وبروزها وباطنها وخفاياها. ومن هذا المنطلق - ومِن خلال تعابير القرآن الكريم - يمكن اعتبار التكنولوجيا عِلمَ القيامة البشرية، وذلك لقوله جلَّ وعلا في القيامة: يوم تتضح سرائر الإنسان وتتجلى مكنونات صدره.

ومع هذا، فإنّ التكنولوجيا إفراغٌ متجسّدٌ ماديٌّ، فهو علمُ تجسيد البشر لرغباته وميوله وتطلّعه نحو تحويل هذا الكون الترابي إلى جَنّة مثالية يمكن تسميتها باليوتوبيا؛ أي المدينة الفاضلة.

إذن، فالتكنولوجيا تَصنعُ مِن بالإنسان موجوداً أجوفَ وفارغاً لترميه خارجاً كي تفضحَه، وتتركه وحيداً متهاوياً مِن الدّاخل وهذا ما أشار إليه القرآن بكون القيامة ساحةَ وحدة البشر ومَسكنته.

فالعدمية واللاشيئية والإنكارية المنتشرة هي نتاجُ التكنولوجيا الثقافي والنفسي وسحرُها الأخّاذ الذي يخطف الأبصار ويعمي القلوب حيث باتت تمثّل أنانية البشر في تأليه نفسه وذاته وذلك - كما قلنا - لتجسيدها وتمظهرها الخارجي لنفسه.

ولكن فيما يخصّ الباطن والضميرَ الإنساني فإنّه ذات وجوه وطبقاتٍ عدّة وتمظهرات مختلفة يمكن جمعُها في وجهين رئيسيين هما النفس الواعية والنفس اللاواعية. والتكنولوجيا تشكّل مظهرَ النّفس الواعية؛ أي النّفس الناطقة.

والنّفس الواعية أو الناطقة البشرية فمختلفة الوجوه والمراتب وقد تمَّ التعبير عنها في الثقافة الدينية بالنّفس الأمّارة، والنّفس اللوامة، والنّفس الملهَمة، والنّفس المطمئِنة، والنّفس الراضية والنّفس المرضيّة، والنّفس الواحدة وهي

النطاق العامّ للنّفس الواعية والناطقة. كما يمكن للبشر بلوغ إحدى هذه المراتب أو كلّها حسبَ معرفته وذلك بواسطة الشّعاع المعرفي. ومع هذا، فمِن النادر بلوغ البشر مرتبةَ النفس الواحدة والتي تمثّل الذات.

والتكنولوجيا تجسّدُ أيَّ مرتبة مِن مراتب النّفس الواعية والناطقة؟ إنّها - ومِن دون شكٍّ - النّفس الأمّارة التي تُعتبر المرتبة الأولى والبرّانية مِن النفس، حيث هناك نِطاقُ التكنولوجيا الأساسي، بل التكنولوجيا التمظهر البرّاني للنّفس الأمارة.

إنّ النفسَ الأمّارة هي النّفس الراغبة المهيمنة الشرهة النهمة المنغمسة في طول الأمل وبُعد الأجل والمنهمكة في شأنِ الدنيا وهي النّفس المستكبرة المتغطرسة. وهذا بِرُمته هو المعنى البشري للتكنولوجيا. ولكن لا سبيلَ للتكنولوجيا إلى النفس اللوامة، فإنّها نفس نادمة من الدنيا وبريئة من الكِبر والكفر حيث طلّقت التكنولوجيا ثلاثاً دون رجعة أو لا تُبدي لها شوقاً - على أقِّل تقدير.

وإذا كانت النّفسُ الأمارة مصدراً لحبِّ الدنيا والكفر والكِبر والسلطة وطول الأمل، فمن الأَولى أن تكون التكنولوجيا - باختصار - تجسيداً للكُفر البشري وتلبية لرغباته الكافرة. وهذا هو السّبب في شخوص مالكي أرقى أنواع التكنولوجيا، وعلى رأسها القوى العظمى المادّية والكافرة ذات النزعة الاستكبارية والإمبريالية - حسبَ التعبير العصري الراهن.

إنّ التكنولوجيا تجسيدٌ لكِبر البشر والكِبر هو الكفرُ البشري بعينه.

وإذا كان إبليس يتزعّم جميعَ قوى النّفس الأمارة البشرية وقدراتها، فإنّه سلطانُ الكفر ومؤسسُه، فالتكنولوجيا – بتعبير آخَر - تصبح أداةً لتجسيد نفس البشر الإبليسية؛ وبعبارة أخرى، تُمسي التكنولوجيا صنيعةً إبليسيةَ النفس ومظهراً لتجسّدها في نهاية الزّمان. ولا ننسَ بأنّ إبليس ليس خارجاً عن مشيئة الله، ولا سبيل له للسلطة على الإنسان دون إذنه تعالى.

إذن، فأصبح من الواضح بأنّ العالم التكنولوجي هو البديل الإبليسي للجَنّة التي وَعد اللهُ بها المتقين ولهذا نجدُ جميعَ النحلِ الفلسفية والأيديولوجية، ومنها الإمبريالية والشّيوعية، تتمحور حولَ التكنولوجيا وتتمترس خلف التكنولوجيا مُظهرةً للكفر والإلحاد - جهراً وعلانية.

٢. في المعنى التاريخي للتكنولوجيا

تعني التكنولوجيا مِن هذا الوجه صناعة الأدوات لتجسيد طموح البشر وآماله الدنيوية والمادّية.

وأوّل ما صنعَ البشرُ كان عبارةً عن نوعٍ من الهراوة أو المِسحاة أو الفأس حيثُ استخدمه قابيل - أولُ قاتلٍ في التاريخ - في الزّراعة ثمَّ استعمله بعد فترة لضرب أخيه هابيل فأرداه قتيلاً.

ولصناعة الأدوات والتكنولوجيا سِجِّلٌ تاريخي مليءٌ بالهيمنة والظلم والعدوان وسفك الدماء. إنّ فلسفة ماركس عن تاريخ المراحل تتّسمُ بالصحة أساساً، ولكنما كُرّسَ هذا التاريخ لصالح المادّة حيث تمَّ تفسير حركة التاريخ بأنّها تأتي نتاجاً لأدوات الإنتاج وتطوّرها. وقد أصاب ماركس في تفسيره، لكنّه أخطأ في نتيجة هذه المكاشفة.

وقد جعل ماركس - في ضوء هذه الفلسفة - الثقافةَ والدينَ والقيمَ الروحية العليا في البِنية الفوقية تبعاً للبِنية التحتية التي هي صناعة الأدوات وعلاقات الإنتاج. وهذا يحمل بعضَ الصحة، لأنَّ مذهبَ عَبَدة التكنولوجيا - وهو مذهب الشّرك والنِّفاق - سخّر قدراته لخدمة السلطة والحفاظ على أدوات الإنتاج وتطويرها وتعزيز القدرات التكنولوجية. ولم يعرف ماركس كُنهَ مذهبِ الرُّسل التوحيدي ولذا صنّفه ضمن قائمة صناعات التكنولوجيا. وهذا أساسُ بدايات انحرافه.

إنّ الانحراف الماركسي بدأَ مِن عدم معرفته بجوهر التكنولوجيا، والتي حسبَ رأيه، حصيلة سِحرها الفتّان والمنخوي إلى المِلكية، ولذا اعتبرَ منتجي التكنولوجيا والقائمين عليها مصدرَ تعاسة حياة البشر ومحنته وشقاءه. ومِن هذا المنطلق - أي مِن المنطلق الشيوعي - طرحَ ماركس مشروعه الخاصّ لإسقاط نظام الملكية الخاصّ على مصادر وأدوات الإنتاج.

ولم يستوعب ماركس جوهرَ التقنية الكافر والاستكباري العدواني بمثابة تجسيد لنفس البشر الأمّارة.

والخُلّص مِن المؤمنين هم الذين لا يقعون أسرى التكنولوجيا، فلا تحوّلهم إلى مجانين غرباء عن الذات؛ لأنّهم يسيطرون على نفسهم الأمّارة وإغراءاتها المزيّفة.

إذن، فتنطبق الفلسفة الماركسية تماماً على تاريخ المجتمعات البشرية والثقافات والبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأُسرية وعلى جميع المجتمعات الكافرة والمُشركة والمنافقة، بينما يفلت المؤمنون الخلّص وديانات الرُّسل التوحيدية مِن مصيدة تعميم هذا القانون المادّي الجدلي التاريخي؛ لأنّ المذهبَ السلوكي لعبادة هذه الأدوات يشكّلُ أساسَ حبِّ الدنيا والتفاني في السلطة، بل هو نفس عبادة الذات، أمّا الخلّص مِن المؤمنين فمستثنَون من شمول قاعدة الأيديولوجيات المستندة على التكنولوجيا -كالرأسمالية والشيوعية.

ويَعِدُّ ماركس أدوات الإنتاج كمحرِّك لمسيرة نشوء المراحل التاريخية وتطوّرها في المجتمعات البشرية. ويصدق هذا الرأي على المجتمعات اللامؤمنة والتي تعيش على العموم تحت وطأة هذا الحراك.

وفي الحقيقة، فإنّ جميع المذاهب الفكرية الموجودة، والأنظمة اللاتوحيدية لها ماهية تكنولوجية وتحمل روحَ عبادة الأدوات فهذه العبادة عقلها المدبّر والتبلور الجليّ لشكل من أشكال عبادة الأوثان. فعبادة الأوثان في المجتمعات والأمم القديمة وقبلَ اختراع الآلة أو الماكنة إنّما جاءت جرّاءَ استخدامهم للتقنيات المتطوّرة آنذاك في صناعة الأوثان وتفننهم في ذلك. فاختراع الآلة أنهى عصرَ عبادة الأوثان التقليدي حيث العبودية الموجودة في عصرنا الراهن للسيارات والهواتف وجهاز التلفاز والطائرة والقنبلة الذرية تفوق - وبوتيرة أعلى - عبوديةَ الأصنام المصنوعة من الحجارة والطّين والنُحاس.

فالتكنولوجيا هي المسمّى الآخر لعبادة الأصنام فهما وطوال مسيرة التاريخ صنوان لا يختلفان ومسار التّاريخ لم يكن سوى مسار هيمنة التكنولوجيا أو مذهب أصالة التقنية والمهارات أو تمظهر هيمنة النّفس الأمارة على الحياة البشرية ومعيشتها وهو ببساطة مذهب حبّ النفس الأمّارة والمستكبرة، وهو حبّ الشهوات والبحث وراءَ أهواء النّفس. فكلما تطوّرت التكنولوجيا، تضاعفت النزاوت البشرية وازداد كفرُ البشر وتكاثرت أهواءه في السلطة و تمادى حرصُه في التهام العالم.

٣. في المعنى البشري للتكنولوجيا

تُعرف التكنولوجيا بالصفات البشرية معنى وجوهراً: الحبّ والعزم في إطلاق النفس الأمّارة نحو الخارج والسرعة والخفّة المتزايدة في تحقيق هذا العزم.

ولو لم يكن الكفر إلّا الأنانية وعبادة للآمال وحبّ الدنيا والمجون والسلطة واللهث وراءَ الشهوات وحبّ إظهار الذات والبروز المتزايد والحرص والرغبات المجنونة، فلا تستجيب لهذا الكفر إلّا التكنولوجيا.

فالتكنولوجيا - إذن - هي تكنولوجيا الكفر البشري؛ وهي علم الكفران بنفسه، والذي يستلهم جوهره من وحي إبليس دون غيره. إذن، فجميعُ العلماء في مختلف العلوم والفنون - في حقيقة الأمر - ليسوا سوى رُسُلِ إبليس، وكما تحدّث القرآن عن وحي الشياطين فهؤلاء العباقرة في العلوم والفنون لا يكونون سوى رُسُل وحي الشيطان.

والتكنولوجيا هي عِلم امتلاك العالم من أجل الهيمنة والسلطة على العالَم والعالَمين. إنّها «علم البغي» حسَبَ المنطق القرآني[1] حيث يقول جلّ وعلا: «إنّ الكفار يقولون إننا العلماء، وإنّ المؤمنين هم السفهاء، فاعلموا أنّ ما عند الكفار لا يُعتبرُ علماً وإنما ألعابٌ ودمًى يتلاعبون بها، وسوف يفضحون ويهلكون. ألا إنَّ العلمَ عندَ الله، يعطيه لمن يشاء مِن المؤمنين المصطفين ليهتدوا به.»

إذن، فنشاهد بأنّ اللعبَ والخزي والهلاك هي السمات الثلاث لعِلم الكافرين، أو علم البغي وهي تنطبق بالكامل على التكنولوجيا ومَن انجرَّ وراءَها. فالخِزي ينطبق على الـ Techno ويعني البروز الخارجي والتّمظهر. واللعب والهلاك الناتج عنه هو ما نشاهده اليوم في العالم حيث تنتهي جميع الألعاب الملنخوية بهلاك اللاعبين التكنولوجيين.

و(اللعب) هو أحد سمات التكنولوجيا الذاتية لدى الإنسان، حيث يصبح فيه ألعوبةً فاقدةً للإرادة وعبداً مملوكاً يعتريه الجنون فيقدم على الإجرام. إنّ الخِزي والعزلة سمتان رئيسيتان من أهمّ سِمات إنسان آخِرِ الزّمان ويعدّان من سمات إنسان القيامة - حسبَ القرآن. وأفضل تجسيد لـ(اللعب) في جوهر التكنولوجيا قد يظهر اليوم في جهاز الكمبيوتر حيث أظهرت أشدَّ مراتب خزي الإنسان ولعبه بصفته ألعوبة، وهلاكه وسقوطه وبالتالي عزلته.

إذن، فالتكنولوجيا ستكون في نهاية المطاف أداةً لقيام قيامة الكُّفار وغايتهم المؤدّية إلى أشدِّ مراتب الخزي والعزلة وتغييرهم إلى ألعوبة وانعدام العزم والإرادة.

---

[1] تجدر الإشارة بأنَّ الكاتبَ يُدخل أكثرَ الآيات في تناصات مع آيات أخرى - كما سوف نرى، وذلك دون هوامش وإيضاحات - وقد يضيفُ عليها من الروايات أو مِن عند نفسه وحسب فهمه للنصوص أو ينقص منها - نظراً لرؤيته الخاصّة به. وأصل الكتاب قد كان على شكل محاضرات. أمّا الهوامش فقد أضافها المترجم والمنقّح، ولا تنوب عن آراءهما - بالضّرورة.

وقد جاء في الذِّكر الحكيم: «وبُرّزت الجحيم» وهذا البروز هو التكنولوجيا. فالنّاس من عَبَدة التكنولوجيا مُسخوا بواسطتها وهو السقوط في درك أسفل السافلين؛ وهذا يعني بأنّ النفس الإنسانية قد وقعت في أسرِ الفولاذ والإسمنت والقطران والإشعاع النووي وهذا ما عبر عنه القرآن حيث جعلهم أضلَّ مِن الحجارة.

٤. في المعنى الديني للتكنولوجيا

إنَّ أكثر الروايات الدينية في الإسلام والمسيحية واليهودية والزرادشتية عندما تتحدّث عن إرهاصات آخِر الزّمان تخصّ عصر التكنولوجيا الحديثة باعتبارها مقدمةً لقيام الساعة ونهاية التاريخ. ومن هذه العلامات ظهورُ الدّجال والتي يتّسم بطابع تكنولوجي. فطولُ حمارِ الدّجال يبلغُ مئات الأمتار يخرج الدخان من أنفه كما تخرج النّار من مؤخرّته وهذه الأمور ترمز إلى القطار والطائرة والصاروخ. أو ظهور الطائرات الحديدية الملتهمة للنّار وهي الطائرات والصواريخ، أو ما تفيد باختيار السّماء طُرُقاً للسير وعشرات العلامات الموجودة في القرآن كتشقق السّماء ووابل الإشعاعات القاتلة وهي ما حدث فعلاً في ثقب طبقة الأوزون واستنزافه وتسجير البحار والذي حدث بوقوع التسونامي المصاحب للأمواج العاتية نتيجة الاحتباس الحراري الحاصل عن التكنولوجيا.

إذن، فآخِرُ الزمان حدثٌ تكنولوجي بامتياز، حيث ذكر القرآن الكريم إفساد الكفار للسماء والأرض وهو يشمل جميعَ أشكال التلوث البيئي.

فالتكنولوجيا تعني تجسيد النفس الأمارة وتظهر الكُفر البشري لتمهيد افتتاح أبواب الزبانية والتي يشكل «التفط» مادة أهلها الغذائية الأولى والرئيسية -كما صرح بذلك رسولُ الله. والتفط -كما نعلم - هو غذاء التكنولوجيا وإدامُ عَبَدتِها، حيث تنتج اليوم ما يقارب مئة ألف مادّة من مشتقات النفط وتُستخدم في طعام البشر الحديث وغذائه - بشَكل غير مباشر. فبشر آخِر الزّمان بشرٌ أكّالٌ للنفط.

ومِن الواضح بأنّ مذهبَ تأصيل التكنولوجيا - بأيّ مبرّر كان - وعبادة التكنولوجيا كأبرز مظاهر الكفر، يشكّلان أساسَ حياة البشر الحديث ومدارَه - وإن كان البعض يبرّر هذه العبادة بطابعٍ ديني. ولا يمكن للتكنولوجيا أن تكونَ أساس حياة المجتمع ومدارَ أمره وسبباً أساسياً في هداية البشر أو إنقاذه، فكما لا يمكن استخدام الشيطان كأداةٍ لخدمة الدين ونجاة البشر، لا يمكن إنشاء المدينة الفاضلة والجنّة من الجحيم.

إنّ التكنولوجيا هي قلب حبِّ الدنيا النابض والشريان المتدفّق لحبِّ التّفس والكفر وعبادة الشيطان فها هم عُشاقها المغرمون التائهون في وادي الكفر والإلحاد، فمنهم الفاسد والمجنون ومنهم الواهن للعزم، والعديم للإيمان والفاقد للكرامة.

فكما يتسبب الشيطان في غفلة الإنسان وانعزاله عن ذاته وانسلاخه عن نفسه وخسرانها، تتسبب التكنولوجيا - باعتبارها معجزة إبليس القاهرة والمغرية - في جنون البشر وإجرامه أكثر مِن غيرها مِن المسببات.

ويبدو واضحاً بأنّنا لم نتمكّن مِن محاربة الأمراض والأخطار والمفاسد التكنولوجية عبر التكنولوجيا الفائقة بنفسها؛ مَثَلُ ذلك مَثَلُ الشيطان حيث مِن المستحيل القضاء على شيطان مستوطن في النفس بشيطان ناعم ولطيف آخَر.

إنّ جميع الوعود العلمية التقنية كذبٌ ومصيدة كوعود الشيطان، كما هي وعود إبليس. والتكنولوجيا بذاتها تمثّل قمة سِحر إبليس ووعده ووعيده.

وهيمنة التكنولوجيا على البشر الحديث أكثر عُمقاً ونعومة وأمضى فتكاً مِن هيمنة الملوك وسادة الحكم في العهود الغابرة؛ إنّها سلطة إبليس على البشر وهيمنته.

والشّيطان الأكبر أو إبليس يتنكّر بالتكنولوجيا بمفهومها الأوسع ويسودُ على القوى العظمى بوتيرة أشدّ مِن سائر شعوب الأرض، فهم تحتَ وطأته وأسره وعبيده البؤساء ومجانينه المتفانين عليه.

التكنولوجيا مهدُ الدَّجاليّة

وكما تبدو وعود الشيطان شهيةً وممتعة في البداية، وتنتهي بالهلاك والتعاسة، فإنّ للوعود العلمية والتقنية نفس المفعول والأثر. إنّ الخير الناتج عن التكنولوجيا لا يشكّل إلّا مجرد فخّ يبدو للإنسان في الوهلة الأولى كجِنان الخلد وما إن دخله حتّى رأى بأُمِّ عينه بأنّها هاوية مستعرة. والمنقِذ في آخِر الزّمان إنّما يأتي لإنقاذ الإنسان من أَسر التكنولوجيا ليس إلّا؛ لأنّ جسمَ الإنسان وقلبَه وروحَه وأخلاقَه وضميرَه وعقلَه وشَرَفَه وعصمتَه أمست برمّتها ضحية مرمية على شرفات التكنولوجيا ووعودها المُغرية.

إنّ التكنولوجيا وعالم الصناعة هي درك أسفل السافلين الذي كما قال جلَّ جلاله بأنّ الإنسان فيها لا يموت ولا يحيى؛ ليسَ حيّاً ولا ميّتاً؛ ليس موجوداً وليس معدوم الوجود.

إنّ التكنولوجيا غاية عبقرية إبليس ونبوغه في نفس البشر.

ولذا فقد وردَ في الروايات الدينية بأنّ المؤمنين في آخِر الزّمان يفرّون نحو المناطق النائية خارج المدن ليعيشوا في المرتفعات وفي الكهوف أحياناً ينتظرون ظهور المنقِذ؛ لأنَّ شأنهم شأنَ أصحاب الكهف، هم مِن نفس النّاس لكنّهم حافظوا على سلامة أنفسهم وهم مَن يواصل استمرار الجنس البشري - (كما نُقل عن عليٍّ عليه السلام). فلا حلول تكنولوجية للخلاص من جحيم التكنولوجيا فهذه الحلول الزائفة هي آخِر ما يرمي بها الشيطان مما في جعبته.

أجل! يتساءل المرءُ وما الحلّ؟ هل هو الفِرار نحوَ الكهوف والمغارات والعودة لأحضان العصر الحجري مرة أخرى؟

هناك حلٌّ عاجلٌ مؤقّت يجب تنفيذه فوراً وهو الهروب من العيش في الأمصار الكِبار حدَّ الإمكان وتقليص الاستخدام المفرط واليومي للأجهزة التكنولوجية كالسّيارة والهاتف والحاسوب خاصّة وحصرها في الشؤون الضرورية والواجبة.

وأما الحلُّ الأساسي والحاسم والتاريخي يكمن في ظهور المنقِذ الموعود الذي يبسط الجنة الأرضية فوقَ أنقاض الحضارة المبنية على أساس تكنولوجي بعد القضاء عليها وإهداءها إلى البشرية لتكونَ بوابةً لجنة المأوى؛ جنّة تحلّ في إقليم لقاء الله على أرضه الترابية وقبل انطلاق القيامة الكبرى والوصول إلى الجنّة العليا.

يعدّ اليوم الابتعاد عن التكنولوجيا ومظاهرها الخداعة أساسَ التقوى وقلبها الخفّاق، وهذا هو المعنى الحقيقي لتقوى آخِر الزّمان - حيث اجتناب المفاسد كافّة والجنون والإجرام الواقع فيه.

يجبُ أن تعلم بأنّ التكنولوجيا هي عينُ إبليس وأذنه ويده ورجله؛ التكنولوجيا تجسيد لإبليس، والصناعة تمظهرٌ للجحيم الأرضي.

إذن، فالهروب مِن المُدن الكُبرى والحياة الصناعية واللجوء إلى الحياة الطبيعية في القُرى والأرياف هو أقلّ ما يمكن القيام به، وما علينا البدء بتنفيذه. إنّ هذه الخطوة والاستخدام الأدنى للمنتجات الصناعية، هي الحدُّ الأدنى مِن الخطوات التي يجب اتّباعها لإنقاذ الدّين والدنيا والنجاة بالقلب والعقل والضمير والبراءة الإنسانية والسلامة. إنّه فِرارٌ حقيقي مِن شبّاك إبليس ونيّرِ السقَر. ولا يمكن القيام بهذا الفرار إلّا بالوعي والتوبة - وليس بغيرهما.

ومَن يتصوّر بأنّ إمامَ الزّمان سيأتي بالتكنولوجيا الفائقة فهو الدّجال بعينه والمزمّر لإبليس، فوجود صاحب العصر يتحف الأرض حياة كحياة الجنّة على المعمورة، ليبطل بذلك سِحر الحضارة القائمة على التكنولوجيا وليظهر للعالَم بأنّه كان مِن الممكن - وبالاستناد إلى العلم اللدنّي - تبديل الأرض إلى جنّة دون الحاجة لعلم البغي هذا. فإمامُ الزّمان مَظهرُ جميع الأسماء والصفات الربوبية ومدينته الفاضلة هي في مدينة شُيّدت في محضر الله سبحانه وتعالى ولقاءه جلّ وعلا؛ مدينة يمكن تسميتها بمدينة عرفان الحقّ.

وكما أنّ تاريخ الحضارة التكنولوجية مَظهرٌ وتجسيدٌ للنّفس الأمّارة، ستكون مدينة إمام الزّمان الفاضلة وحضارته المتقدّمة وذاته تبلور النّفس الراضية والمرضيّة؛ لأنّه تجسيد للنفس البشرية الواحدة، بل هو نفسها الواحد الذي يُسخّر ويطوّع جميع الكائنات لخدمة الأرض وإعمارها لتصبح جنّة نعيم أرضية. وهو عهد تشرق الأرض بنور ربّها لتفصح عمّا في باطنها من البركات والطيبات من الرّزق.

وحسب هذا الرأي، فإنّ آخِر الزّمان يعني نهاية تاريخ تمظهر النفس الأمارة البشرية وبروزها، ونعني بذلك تاريخ الحضارة التكنولوجية والاستكبارية الكافرة.

وكما أنّ الإنسان المصاب بداء التكنولوجيا، خصمٌ لذاته وعدوٌ لنفسه فإنّ تاريخ الحضارة التكنولوجية والتكنولوجيا نفسها يدلّ على أنّها تطيح بعرشِ نفسها وتقضي على ذاتها بذاتها وهذا من سِمات الكفر. فانتشار الأمراض الفتاكة كالإيدز وشيوع التعاطي بالمخدرات الحديثة وعقاقير الهلوسة كالكراك وتعرّض الإنسان للإشعاعات النووية وظهور الرغبات الجنسية الشاذة كالمِثلية ما هي إلّا دلالات على نهج الانتحار الذاتي الذي سلكه موجود آخِر الزّمان التكنولوجي. إنّ الحضارة المبتنية على التكنولوجيا حضارة يقودها إبليس وبلغت ذُروتَها في آخِر الزّمان لتتهشم وتتهاوى نحو العدم هي وأنصارها.

ولقد بيّنا في أعمالنا الأخرى بأنّ جميعَ منجزات الحضارة التكنولوجية ومنتجاتها، ملنخوية تتعارض مع الإنسانية والعقل، وقيمُها جدلية مدمرة لذاتها بذاتها ومطيحة بنفسها، كما هو الحال بالضبط مع الإنسان التكنولوجي فتجده متعارضاً في ذاته مثقلاً بعبئ التباين والتناقض، فتراه يمتلك طِبّاً مضاداً للشفاء، وحُبّاً معاكساً للمحبة، وحريةً ضدَّ الإرادةِ البشرية، وديموقراطية دونَ اعتبار الشعوب، ومذاهب تعمل على خلاف المذهب، وشبكة مواصلات دون صِلات، ومساواة بلا عدالة وما إلى ذلك، وكلُّ شيء يحمل التباين الذاتي، ليكوّنَ أخيراً إنساناً ضدَّ الإنسان! أوليس هذا ينمّ عن حضارة وثقافة وتاريخ إبليسي شامل؟

وتتفاقم هذه الأزمة في آخِر الزّمان وتبلغ هذه التناقضات والمواجهات ذروتَها لتنفجر وتتلاشى أشلاؤها إيذاناً بظهور المُنقِذ وفتح أبواب جنّات النّعيم. وتشرح مجموعة الأعمال التي قُمنا بها مشروع الاستعداد العرفاني لمواجهة الفترة التي نعيش فيها، والموقف الذي نمرّ به.

وجميع الشؤون في المشهد التكنولوجي، ملنخوية تحمل بين جنبيها روحَ التدمير الذاتي. وأكثر الشؤون ملنخوية - في هذا المجال - هي ما تخصّ الدّين والأخلاق والقيم الروحية. ومِن هنا فإنّ الفلسفة والرأى والشّعور والهوية البشرية المتروكة لهيمنة الحضارة التكنولوجية ما هي إلّا العدمية وإرادة القوه للقوة؛ مذهب الحضارة التكنولوجية ومنهجها عند آخِر الزّمان وتجلياته المشهودة على مستوى العالم ولدى جميع فئات البشر: العدمية، والقوّة، والجنون والإجرام؛ إنّها آخِر المفاهيم المتبقّية في آخِر الزّمان. وأمّا القيم والمزاعم الأخرى المتبنّية من قبل الأشخاص والمجموعات والدُول ولا سيّما العظمى منها فهي زائفة، وهي قناعُ إبليس لخداع الآخَرين؛ عملية تتمّ المحافظة عليها بشكل مطّرد ليمرر - ومن خلالها - الكفر الخفي مسيرته المرافقة لأشدِّ أشكال القهر والفضيحة. وفي هذا المخاض العَسِر ستكون الحكومات والمجتمعات الدينية أكثر عرضةً للنفاق والجنون والعذاب فآخِر الثورات في هذا العصر لم تُنتج إلّا مِن جوفِ طغيان الكُفر المعلن ضدّ النفاق المبطَّن. وكلُّ هذا يدلّ على استعداد عالمي لظهور الحقيقة وإشراقةِ مُنقذِ آخِر الزّمان؛ لأنّ المؤمنين والتيارات الدينية والعرفانية المخلِصة - وعلى ضوء اتّضاح معالم المواجهة العالمية - يشقّون طريقهم عن طريق مسير الحضارة التكنولوجية. إنّها النواة الأولى المؤسسة للظهور، لأنّها تؤهل وتربّي الرعيل الأوّل من أنصار المنقذ وأتباعه. والمواجهة تقع بين نهجين: الكفر المعلَن بجميع طاقاته والدين والإيمان بكامل قواه وعتاده، بين الجنون الظاهر والعقل الباهر. إنّها مواجهة بين آلهة الصناعة، وفطرة البشر وطبيعته. إنّ

العذاب والجحيم المتدفّق من صميم الصناعة والتكنولوجيا سيدفع البشرية وبأفواج متلاحقة، نحو العودة إلى الطبيعة والفطرة البشرية والأخلاق والإيمان. إنّ هذه الطبيعانية لا تقترب من طبيعانية روسو أو طبيعانية الهيبيز، وإنّما طبيعانية عرفانية وأخلاقية. وفي الحقيقة فإنّ بابَ النجاة يفتح مِن قعر طبقه الجحيم السابعة ودرك أسفل السافلين - حيث يقف على عتبته إمام الزّمان وكأنما يدعو: «إلى الدخُول في جنّته، وعبوديته، ورضاه». وعندها تكون نهاية تاريخ صناعة البشر لجنته التكنولوجية ونهاية تاريخ الاستكبار والنفس الأمّارة ونهاية تاريخ الملكية والسلطة والاستغلال. كما تكون نهاية التاريخ الزائف وكذبة تُدعى «تاريخ الحضارة!» لتبدأ الحضارة الحقيقية واجتماع البشر العاطفي والعرفاني. إنّه عهد جديد في المحبة. وخلافاً لتاريخ الحضارة التكنولوجية السلطوي والداعي إلى الكراهية والمتنكّر بزيّ الحبِّ، فإنّها نهايةَ تاريخِ جهنم الأرضي. وهو جحيم قائده إبليسُ أغرى وتلاعب بعقول أتباعه لآلاف السّنين بشعارات فارغة ووعود حبٍّ وحرية ليقودهم نحو الدّرك الأسفل من النّار وليكشر عن أنيابه في وجوههم محتقراً مبتسماً وقائلاً: تباً لك يا بنَ آدم! تركتَ ربَّك واتّبعتني! ألم يكفكَ ربُّك وأرضه التي خلقها لأجلك، حتّى تفسدَ في الأرض للحصول على رزق أكثر وعيش أطيب؟

والتكنولوجيا ساحة لتمظهر جهنّم في العالم الترابي. وبعد انهيار هذا الجحيم الأرضي يأتي دور ظهور الجنّة، وتبدأ بظهور المنقِذ الموعود.

مع هذا، فإنّ المؤمن العارف والسالك إلى الله سيجتاز التاريخ ليخرج من جحيم النار إلى نعيم جنان ربّه وليلتقي بإمامه على حِدة ليكون هذا اللقاء بادرةَ انفراج في جنّة الأرض والنّجاة والفلاح، فمعرفة آخِر الزّمان والتصديق بمعارفه مقدمتان واجبتان لهذا النجاة وذلك الفلاح.

إنّ الخلاص مِن جحيم التكنولوجيا يستلزم قبلَ كلِّ شيء المعرفة اليقينية بالوضع السائد وهي المعرفة بالجحيم بجميع مقوّماته مِن علاقات جحيمية وتغذية وصحة وطبّ جحيمي وبيئة جحيمية وثقافة وأدب وفلسفات سياسية جحيمية والأهم من هذا كلّه مذهب ومعنوية وعرفان جحيمي. إنّ مجموعة الأعمال التي قمنا بها هي في الواقع سردٌ لجحيم زماننا. إنّ قراءة هذه المعارف وإدراكها والتصديق بها هي مِن أهم الواجبات للخروج من الجحيم وهو أمر لا بدَّ منه. وأما التجارب التي خاضها المستفيدون من هذه المعارف حتّى الآن، فهي حجة بيّنة لحقيقة ما ندّعيه حيث شعر جميعُهم

بالنجاة وصدّق كلُّهم بهذه الحكمة العَلَوية بصرخة مدوية: «لم يكن الجحيم سوى عدم المعرفة، ومَن عرف نفسَه فقد نجى!».

الفصلُ الثّاني

وجودُ العشق

كلُّ شيء في عالم الكون يعبّر عن نفسه، لأنّه آية مِن الوجود؛ أي آية مِن الله، إلّا الإنسان؛ فالقلة القليلة هم مَن يصدقُ عليهم عنوانُ الإنسان في الأرض.

كلُّ شيء لا يُعبّر إلّا عن نفسه، أمّا الإنسانُ لو كان إنساناً حقّاً فسيكون أفضل آية للوجود؛ أي أفضل آية لحضور الله. ومِن منظور هذا الإنسان سيكون كلُّ شيءٍ مُعبّر عن نفسه وهذا هو المراد مِن (قطب عالم الإمكان).

إذن، فالإنسان دليلُ وجود الموجودات - شريطة أن يكون إنساناً. ولكن ما هي الإنسانية وكيف يمكن الحصول عليها؟

لوجود الإنسان حريم ونطاق يتسع بوسع الكون كلّه، ويُعَدَّ جسم هذا الإنسان مركزَ هذه الدائرة. فلو تربّع على هذا المركز تُمسي له موجوديةٌ عالمية وكونية. إنّ هذه النقطةَ هي عرشُ الله العظيم ومن جلسَ عليها فقد تربّعَ على مقام الله. وهذا هو الإنسان بالتّحديد.

وجميعُ ما يُطلق عليه السعي الروحي والمعنوي، هو سعي للعثور على هذه النقطة. إنّ هذه النقطة في ثقافتنا تسمّى بالقلب أو الفؤاد وليس القصد منه القلب المصنوع من اللحم والخفّاق في الصدور.

كذلك سُمّيت هذه النقطة بالـ(حال) وتعني أنّ العثورَ على هذه النقطة والوقوف عليها وبلوغ مرتبة عنوان الإنسان يمكن في اغتنام الحال الحاضر، بل نمسي العالَم؛ أي نكون خليفة الله في الكون. إنّ الإنسان بمعناه العام موجود في كلِّ مكان (في ذهنه)؛ موجود إلّا في ذاته. فلو تجرّد عن كلِّ مكانٍ للقيَ نفسَه، فصار هو بنفسه. فالإنسان مع الجميع وفي الجميع إلّا مع نفسه وفي ذاته. وجاذبية الأرض تسوقه معها إلى الوراء ولا تسمح له المقام في الحال الحاضر.

ولا توجد تعاسة للآدميّ أكبر من أسره في الزمان. وإنّ بني آدم متخلّفون يعيشون الماضي وأسرى إغراءاتهم فلن يجرّبوا الحياة، لأنّهم لا يعيشون الحال الحاضر وسائرون نحوَ القهقرى باستمرار، فليس لديهم معرفة حقيقية بواقع حياتهم المتدفّقة والجارية وإنّما لا يفسّرون سوى الماضي الغابر. وهذا هو ما عبّر عنه القرآن بالـ(غفلة) وهو السبب الأساس والمصدر الأوّل لجميع الخطايا والذنوب. وهذا هو الموت بعينه؛ قوةُ الطرد المركزي التي تقذف الإنسانَ خارجَ نواة حياته الرئيسية والتي يمثّلها القلب. إنّه النسيان ونسيان الذات والجنون بعينه؛ مصدر الإجرام والتجنّي؛ إنّه العدم.

ويُدرك الوجود والعدم في معناهما الحقيقي من هذا المنظور فحسب. والإنسان عدمٌ، ولذا تمسي الإنسانية بحراً من الآراء والنظريات والفلسفات والأوهام وهي من أسباب نشوب الصّراع بين الأشخاص والشعوب والحضارات؛ صراع بين أُناس لا وجودَ لهم؛ إنّه حربٌ بين المعدومات، وجهدٌ فاشل للتأكيد على الحضور والوجود. وكافّةُ الأيديولوجيات ليست إلّا وصفة للوجود: الاتصاف بالإنسانية! لكنّها تنتهي إلى عدم أشد وبجنون ونسيان أكثر رُعباً. إنّه حربٌ بين الأجنّة والشياطين اللذَيْنِ سخّرا وجودَ الإنسان وليس حرباً بين النّاس. حربٌ بين الشياطين لقهر الإنسان وأسره، والضحية لا يكونُ إلّا الإنسان.

فما هي هذه الطاقة السِّحرية والشيطانية القاطنة في الأشياء والنّاس والطبيعة والصناعة والملكية والوثنية، التي تطرد الإنسان وتدفعه عن عُشّ حياته وتلعنه لِيَتيهَ عن نفسه ويغتربَ عنها وينعزل؟

والنّاس أرواح تائهة وأشباح دون مأوى، عالقين خلفَ منزل الوجود. وهذه هي العلّة والمعنى للحدث الذي يُسمّى بالعشق، والعشق لم يكن سوى محاولةٍ لدخول منزل وجودِ الآخرين وهو ما يبوء ذاتياً بالفشل. وسُمّي هذا الوجود المسروق عشقاً، حيث ينتهي دائماً إلى العداوة والإجرام. وهذا هو كلُّ ما في قصة الإنسان في تاريخ الحضارة.

ولكن لم يتمكّن أحدٌ مِن السّماح لشخص آخَر أن يدخل ويقيم في منزل قلبه؛ ولو كان ذلك ممكناً لسكن هو بنفسه وأقام في قلب نفسه بنفسه ليتخلّصَ من التشريد والغربة والبؤس.

ومثَلُ العاشق والمعشوق كمثل شخصين نذرَ كلٌّ منهما أن يُطعمَ الآخَرَ مِن لحمِ شاةٍ ميّتة، فهما يقدمان بيتاً مغلقاً مسكوناً بالأجنّة والشياطين إلى بعضهما البعض ويتسكعان ردحاً مِن الزمن خلفَ منزل قلب الآخَر وحين يستولي عليهما اليأس والإحباط يتبدّل الكلام الناعم والمشاعر المرهفة إلى هجاء وشتائم لينتهي الإمر باتهام الآخر بالخيانة تمهيداً للانتقام. وهذا هو كلّ ما في التاريخ عن قصة عشقِ البشر للبشر.

ولم يتمكّن أحدٌ من فتحِ باب منزل قلب الآخَر، فلو استطاع ذلك لكان حَرِيّاً به أن يجد سبيلاً لفتح باب منزل قلبه أولاً وبالذات، حيث يعلم شفرته ومفاتيح أسراره. إنّ الوحيد الذي يتمكّن من فتح باب منزل قلب الآخَرين، هو من استطاع إخراج الأجنّة والشّياطين وطردهم والإعداد لدخول مالك البيت إلى بيت وجوده ليقيمَ في القلب الذي يمتلّكه، ليكون مالك الوجود وهذا لا يأتي إلّا من العارف والواصل والإنسان الحقيقي.

فالتاريخ لم يعرف أكذوبةً أعظم وجنوناً أكثر إجراماً مِن قصة العشق هذه وكلّما اتّسع اغتراب الإنسان عن ذاته، كلّما ازدادت هذه القصة لهيباً وهولاً وإجراماً - كما هو حال عصرنا الراهن حيث نعرات العشق المرتفعة في سماءِه؛ إنّها نعرات الاغتراب عن الذّات وتشريد الإنسان وقهره، ونعرة هلاك الإنسان المسخَّر بيد الشياطين وشيطان أكبر يُسمّى بالتكنولوجيا.

إنّ هذه التكنولوجيا ومنتجاتها والملكية الناتجة عنها تسببت في اغتراب الإنسان عن ذاته وتشريده ونزوحه وجنونه. إنّ الأصنامَ التكنولوجية لا تختصُّ بآلة دون أخرى وشأنٍ دونَ شأن، فهي تشمل المجرفة والمنشار والسّيارة والحاسوب والمصنع والتلفاز والهاتف وما يخصّ البيئة المحيطة وحتّى ملابسنا ونظاراتنا وأبواب بيوتنا وحيطانها وشهاداتنا الدراسية ومناصبنا. كما تشمل مَن هم حولنا فأسرناهم وأغريناهم بالعشق والعواطف بُغيةَ احتلال وجودهم يوماً ما.

ولم يعرف هيدجر في نهاية المطاف، والذي أفنى حياتَه بالتفكير حولَ كينونة الإنسان بأنَّ «الوجود في الآخَرين» و«الوجود في العالم» و«الوجود في الزمان» كلّها ليست سوى نطاق «للوجود في الذات»، فالإنسان الغائب عن الذات غائب عن كلِّ مكان ولم يصطحب هوية، بل هو محكوم بالعدم ويلفظ أنفاسه الأخيرة على حافّة العدم، وهو في خوف متزايد من الانعدام وفي دوامة مسرعة نحو الجنون.

وأمّا مَن كان حاضراً في ذاته، فإنّه حاضر في كلِّ العالم ومقيم في قلب الزّمان؛ إنّه إنسان كينوني يتجاوز التاريخ، ويحيط بروحانية على كلِّ الزمان والوجود - كما جاء في حكمة بايزيد البسطامي[٢]: «كان العالم مليئاً ببايزيد ولم يكن بايزيد حاضراً!».

إنَّ المقيم في ذاته حاضر في كلِّ نفس ونقطة في العالم مثلُه مثلُ الرّب؛ لأنّه خليفتُه. وأما الإنسان الخارج عن ذاته فإنّه غيرُ موجودٍ أصلاً؛ إنّه يدّعي الحبَّ ولكنّه يتعطّش إلى لوجود والكينونة، لكنّه يخطأ السبيل. فلو صبر وسعى خلفَ منزلِ قلبه بدلاً عن الانشغال بالغير والمساومة واستجداء الدخول من الغير، لَاهتدى إلى سواء السبيل ولصار موجوداً لَعَلِمَ أخيراً بأنّه لم يكن عاشقاً لأحدٍ ما، بل كان مصاباً بالعدم وقد أفنى حياتَه في البحث عن امتلاك وجود الآخرين.

أمّا بعد الهزيمة، فقد يصاب بالذكريات الفانية ليقيم - وللأبد - في الماضي حتّى يموت، وينتبه بعد ذلك الموت قسراً.

لكنَّ المقيم في ذاته سوف يُحبُّ الآخرين أيضاً. وهذه هي العلاقة السليمة والحقّة والإنسانية الوحيدة التي تمثّل النقطة المقابلة للعشق والمتباينة مع العشق.

فالعشق ليس الحدَّ الأقصى ونقطة الكمال الأولى للحبِّ بل متعكاساً معه بالكامل. والعشق باكورة ظهورِ أشدِّ أنواع الظلم والخداع والإذلال والضّلال والاعتداء والخيانة. وأمّا المحبة، فهي الخدمةُ الخالصة دون مقابل وهي مقام إنسان لا يمثّل سوى نفسه.

---

[٢] أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البِسطامي، صوفي مسلم مِن القرن الثالث الهجري، يلقّب بـ"سلطان العارفين". اسمه الفارسي "بايزيد" كما عرف كذلك باسم طيفور، كان جده شروسان مجوسياً وأسلم، وله أخوان هما آدم وعلي. ولد سنة ١٨٨هـ في بسطام في بلاد خراسان وفي حي يقال لها محلة موبدان. روى عن إسماعيل السدي، وجعفر الصادق. توفي سنة ٢٦١هـ، وقيل سنة ٢٣٤ هـ. قال البسطامي بوحدة الوجود ونُسبت إليه بعض الشطحات، كقول «لا إله إلّا أنا فاعبدوني» و«سبحاني ما أعظم شأني».

ومَن لم يمثّل نفسه لم يعرف أحداً ولا شيئاً، إنّه لا يشعر، بل إنّه أعمى وأصمّ. فكيف له أن يقومَ بخدمة الآخرين وأن يكونَ عاشقاً؟ أجل! إنّ هذا العشقَ إبليسيٌ، ولذا تجده عِشقاً مضاداً للعشق. إنّه سرقةٌ لوجود الآخَرين؛ سرقةٌ فاشلة مدى الدهرِ - بالتأكيد.

إنّه عشق تاريخي وتكنولوجيّ وكافر. عشقُ إنسانٍ معدوم يسمّي رغباتِه تضحيةً. فكلُّ قيمه معكوسة لأنّه اعتبرَ عدمَه وجوداً فاختلط في قاموسه الوجود مع العدم. إنّه إنسان مقلوبٌ رأساً على عَقِب فحتّى لو كان متديّناً تجده يُدين بدينٍ ضدَّ الدين، وإلهه إبليس يعبُده باسم الله - كما عبّر عنه القرآنُ بالذي «اتخذ إلهَه هواه فأتى بظلمٍ عظيمٍ».

أجل! فالمحبة والحبُّ هي لمَن يمتلكُ وجوداً وله مُقامٌ في ذاته. ومَن خلفَ اللهَ في مُقامه، صار أهلاً للعفو والسخاء والإيثار وأمسى ذا رحمة وكرامة. وأمّا سائر النّاس فلا وجودَ لهم. فهم في التعبير القرآني «ليسوا في عِدادِ الأحياء ولا الأموات». فهم ليسوا بموجودين ولا بغير موجودين. والمفروض أن يكونوا موجودين لكنهم معدومون. وبهذا السبب تجدُ حياتهم كلُّها افتراضية واقتراضية ويتصوّرون بأنّهم لم ينالوا حظَّهم من اهتمام الآخَرين، وكأنّهم قد عرفوا شأنَ أنفسهم!

هذه هي قصة الكفر والإيمان: إنسان يخشى العدم (الكافر) وإنسان آمن؛ لأنّه مُقيمٌ في منزل وجوده الآمن، إنّه المؤمن وهذا يعني بأنّ وجودَه مُؤمَّنٌ - لأنّه وجوديٌّ وكينوني.

إذن، فالعشق الاسم المنتحَل والإبليسي والجانب الفاني والمعدَم لعموم الناس - ولا سيّما في آخر الزمان. فالآدمي بدلاً من أن يقولَ أنا لستُ موجوداً وفي طور الانعدام، وبدلَ أن يطالبَ بالإنقاذ، تراه يقول إنّي عاشق وأريد أن أضحّي بوجودي لكم. هذا هو كلّ المعنى الملنخوي لعشق الإنسان الفاقد للوجود. وفي الواقع فإنَّ هذا العاشق يريد التضحية بانعدامه ليسرقَ بالمقابل وجودَ معشوقه. وهذا هو كلّ المنطق المبطَّن خلفَ هذا النوع من العشق. ومِن الحقّ أن يفشل هذا المكر والظلم العظيم وينهزم ويفتضح؛ لأنّ الله هو المالك الحقيقي لوجود الإنسان، والوجود هو الله. فلم يتمكّن أحدٌ مِن خداع الله وسرقته. إنّ هذا هو المكرُ والتلاعبُ على الله وبذلك تكون أفتكَ لعبة قام بها البشر طوالَ تاريخ الحضارة التكنولوجية.

ولقد افتتن الإنسان عند مواجهة الأصنام وخسر منزل وجوده وادّعى العشق والتضحية. وهذا هو حبُّ الدنيا الذي بلغ قمّته في عصر سِحر التكنولوجيا. ومن هذا المنطلق، فأشد عبدة التكنولوجيا هم أكثر مَن يدّعي العشق وأعظم مبتلعي العالم حيث رسولُ عشقهم هم الإمبرياليون وإلههم إبليس.

وقد ورد في القرآن «مَن كان يعشقُ الآخَرين فقد أحبَّ اللهَ»، ومَن الذي يعشقُ الآخرين؟ هو الذي استشف وجودَه من الله شريطةَ أن يكونَ وجوداً إلهيّاً. ولا يعشق سوى مَن أقام في منزل قلبه وجلسَ مجلسَ الله واستمدّ وجودَه منه. وببركة هذا النّوع مِن العشق سوف يعشق جميع الكائنات والنّاس. إنّ هذا الإنسانَ أهلٌ للمحبّة - دونَ غيره.

إذن، فالوجودُ هو العشق الإلهي المتجسّد في المحبة للناس، والعشق هو الوجود بعينه. والجميع يعشقون العثور على الوجود في ذواتهم ولكن - مع الأسف - قد تركوا أبوابَ منازل وجودهم وامتهنوا الاستجداء من الآخرين وأطلقوا على هذا الاستجداء المزيّف والمشحون بالرياء عنوانَ العشق. إنّ هذا العشق مضادٌ للوجود وللمحبة ومآله فضيحة الجميع في نهاية المطاف. ومن هنا – بالتّحديد - ترافقت نهاية هذه القصص بالحقد والكراهية والثأر. إنّ هذا العشق مهلِكٌ وأكّالٌ للبشر.

إذن، فالسبيل الوحيد للنجاة من الهلاك والعشق الإبليسي والجنون والإجرام، ينحصرُ في الكفِّ والعزوف عن الملكية وترك الدنيا وأهلها وطرد الأصنام عن الضمير. إنّه السبيل الوحيد للنجاة والمخرج الوحيد المنقذ من الهلاك، والوصول إلى الوجود الذي هو السبيل إلى الله وإلى الحياة والحاضر الراهن ووادي المحبة.

الفصلُ الثّالث

فلسفةُ التّاريخ في القرآن أو فلسفةُ البؤس وفلسفةُ التحديث

لقد تكرّر القَسَمُ بالّيل والنّهار في القرآن الكريم ولعلّ أكثر ما قسم الله بآياته ومخلوقاته هو القَسَمُ بالّيل والنّهار.

والّيل والنّهار هما عنصرا التاريخ والتاريخانية وهما داءُ التاريخ، والابتلاء بعبادة الماضي والنسيان والعنصرية والاغتراب عن الذات.

والإنسان العابد للتاريخ إنسان ظالم ومجنون سواءٌ مِن الجانب الدنيوي أو الجانب الديني. فدنياه عنصرية فاشية ودينه - بِرُمّته - نفاقٌ وخرافة وهيمنة - كالصهيونية.

وكلّ ما انبثق من التاريخ وتفسير التاريخ فهو مظلِم. ونواة التاريخ وركيزته الأساس وحركة الزّمان والزّمن النجومي ليست سوى الّيل والنهار.

فالإنسان الواقع تحت أسرِ توالي الّيل والنّهار، هو إنسان غريب عن ذاته وتعيسٌ بمعنى الكلمة؛ لأنّه أسير الفَلَك الدّوار ودورانِ الأرض والقمر والشّمس والنّجوم: إنسانٌ تعيس!!

وهو إنسان ينام بالّيل ويعمل بالنهار، إنسان قليل الحظِّ قد تغلغل التّكرار والتوالي في أعماقِ روحه التي سخّرتها المخلوقات. وقد عبّر عنه (بابا طاهر عريان):

أيا دهري لماذا تزدريني — فَلِمْ ترجُمنَني إن لم تَقيني

ولا أرجو مساعدةً لحَملي — فلا تُثقِلْني بالعبءِ المُهينِ[٣]

---

[٣] المعنى الحرفي: لماذا تسعى أمها (الفَلَكُ) في إيذائي، فإن لم تكُن لي وردةً فلا تكن لي شوكاً، وإن لم تعنّي على الحمل المثقّل على أكتافي، فلا تُزِد الحمل ثقلاً بجلوسك عليه. ويعني بالفَلَك مدار النجوم، وهو كناية عن الدهر. أمّا أصلُ البيتين بالفارسية:

فَلَک در قصدِ آزارم چرائي — گُلم گر نيستي خارم چرائی

تو که باري زِ دُوشم برنَداري — ميانِ بار، سربارم چرايي

وقد يُعرف هذا النمط الشعري باللدوبيتي) أي المتكوّن مِن بيتين، والشّاعر مِن العُرفاء الإيرانيين. عاش في القرن الخامس من الهجرة النبويّة / القرن الحادي عشر مِن ميلاد السيّد المسيح.

إنّ هذه حكمة وفلسفة ذاتية عن موجودية الإنسان في العالم. إنّها سرُّ تاريخ الظّلم والضّلال واغتراب الإنسان عن ذاته. فالتعاسة أو الفلاكة[٤] تعني الإصابة والابتلاء بداءِ الّيل والنهار، كالإصابة بنزلة برد أو إنهاك حراري، كلدغة أفعى، وكالتمغرب والتمشرق، كداءِ الأفيون وكالسأم والضجر.

ولقد عدّ القرآن توالي الّيل والنهار - وذلك في مواطن كثيرة - مِن أنعُم الله وآيات يهتدي بها البشر. وفسّرَ غالبية المترجمين والمفسرين هذه الآيات بأنّ النّهار يَحِلُّ محلَّ الّيل إذا زال الّيلُ وانقضى، وهو تأويل عابث خاطئ. فمحلُّ الّيل والنهار لم يتغيّر وكلٌّ في مَحلِّه ليحلَّ أوانُه. فالّيل دائماً في محلِّه والنّهار في محلِّه أيضاً. فهل يعني اختلاف أيام الأسبوع أو الفصول بأنّها تحلُّ مكانَ بعضها البعض!؟

ويقسِمُ اللهُ في القرآن بالعصرِ أي الزّمان ويوصفُ الإنسانَ المفلوكَ السيء الحظّ الأسيرَ بالزمان بأنّه لفي خسر. وكلُّ خُسرانِه مِن الزّمن، والزّمن يعني التاريخ الذي حصيلته اختلافُ الّيل والنّهار ودَوَران النجوم. إنّه يؤدّي إلى خُسرانِ الإنسان وغفلته والعلة التامة في كفره؛ إلّا الذين آمنوا، وما إلى ذلك.

فمن الواضح بأنَّ كفرَ الإنسان سببٌ في شقاءه أجمع، وهو حصيلة أَسرِه في قبضة الزّمان والتاريخ، وهما أسره لِلّيل والنهار.

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى رسولَه والمؤمنينَ بالتّهجد ليلاً لأثر كلامِ الله البالغ ليلاً ولقربه من القلوب. أمّا الإنسان في النهار فيُمسي كقطعة خشَب جافّة عائمة على الماء بلا حياة وروح، فاقداً للعزم ودمية صماءَ بيدِ الآخَرين. وهذا يعني النضالُ ضدّ الزّمان (العصر) وتعاسة الإنسان وإنقاذه من أَسرِ التاريخ وظلاميةِ الكفر.

وعلى هذا الأساس يمكننا الآنَ بأن ندركَ - وبشَكل أفضل - بأنّ المرادَ مِن هذه الآية هو إحداث التغيير الحقيقي بين الّيل والنّهار لغرض التهجّد ليتبدلَ مكانيهما للمتهجّد كي يتّضح له صراط الهداية.

---

[٤] استخدم المؤلف مفردة القَلَك، والمفلوك كثيراً في هذا الفصل. وجاء في كتاب (الفلاكة والمفلوكين) لمصنّفه أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي (توفي في القاهرة: ٨٣٨ مِن الهجرة النبوية) حول مفردة (المفلوك): «هذه اللفظة تلقّيناها مِن أفاضل العجم، ويريدون بها - بشهادة مواقع الاستعمال - الرّجل الغير المحظوظ المُهمَل في النّاس، لإملاقه وفقره.» انظر مجلة فرهنگ، في مقال للكاتب عليرضا ذكاوتي، في تقريره لكتاب (الفلاكة والمفلوكين) أي الفقر المدقع والفقراء التعساء. والقَلَك هو الجسم المحيط بالعالم، يعني الدهر أحياناً - لا سيّما في الشّعر. والمراد منه دورانه الذي يسبب الإملاق والفقر.

وماذا يعني تبديل مكان الّيل والنهار للإنسان؟ والجواب يعني اليقظة في وقت النوم للتفكير والذِّكر، والنوم في النهار. وكما نعلم فإنّ جميعَ الرُسل والأولياء والعُرفاء كانوا يحظون بهذه السُّنة؛ أي جميع مَن كانَ نورَ الهداية الإلهية بين البشر.

وهذه هي حرب ضدّ الفلك والكائنات؛ حربٌ للخلاص مِن خُسران الزّمن وسِحرِ الاغتراب الإنساني. إنّها حربٌ حقيقية مع التاريخ والظلمات وجور التاريخ البشري . وكان للأنبياء والأولياء السَّبقُ في هذه الحرب.

إنّ الزّمن النجومي الذي يستهلكه الإنسان لأغراضه الدنيوية هو زمنٌ دوريٌ؛ لأنّه يتأتّى مِن دَوَران الأرض والكواكب حولَ نفسِها وحولَ بعضها البعض؛ إنّه زمنُ الدوخة والهذيان. زمنٌ يعبِّر عن الأنانية ومحورية الفَلَك حيث تدور الكويكباتُ الصغرى حولَ الكواكب الكبرى.

وكما نعلم، فإنّ للأرضِ حركتين: حركة مدارية تدور الأرض بموجبها حولَ نفسها وأخرى حركة انتقالية تدور فيها حول الشّمس. كما أنَّ روحَ الإنسان واقعة تحتَ أَسرِ هذا الدَوَران الفَلَكي وهو عنوان تعاسة الإنسان وفلاكته. وإذا كانت حركة التاريخ البشري مملوءةً بالجور والشّقاء والحروب والجنون والإجرام فإنّ كلَّ هذا ناتجٌ عن هذا التاريخ الفلكي البحت. وعلى هذا الغرار، فالإنسان المصاب بداءِ عبادة التاريخ إنسانٌ مفلوكٌ وسَيّئُ الحظّ. وهذا هو السرّ المكنون في سورة العصر.

والتاريخ هو سلسلة من القرون والسّنين والأشهر والأسابيع الناتجة عن اختلاف الّيل والنهار ودورانِ الفَلَك. فما يورثه التاريخ يسبب تعاسة البشر وخسرانه وكفره وضلاله. فعندما يشير القرآن «يقول الكافرون بأنّهم اتّبعوا آباءهم» فهذا دلالة على أنّهم يتبعون الفَلَك والتاريخ. إذن، فالفلاكة هِي أساس الكفر.

أوَليس الدينُ كلّه وسبيل الرشاد في القرآن بمعنى الرجعة؟ إنّها الرجعة من الطريق المسلوك والطريق المقطوع حَسَبَ تاريخ الأفلاك. فالإنسان السالك يعود مِن مسار معاكس لمسيرة التاريخ والأفلاك كي يحظى بمحضرِ الله. والدّين كلُّه هو أمرٌ بالتوقّف عن السير الخاطئ والعودة من المسافة المقطوعة. وهذا هو الذِّكر بعينه؛ ويعني التذكير حتى الوصول إلى لحظة الخلقة الأزلية بجنب الله ومحضره.

وهذه الرجعة لا تكون إلّا بخرق القوانين الفَلَكية؛ ونعني بها التهجّد آناءَ الّيل والتفكر والذِّكر. إنّه طريق العوم خلافَ تيّار الزّمن وتحطيم أغلاله المكبّلة للرّوح والذات. إنّه هو الفلاح مِن خُسران الزّمان.

فالزّمان يُبعد الإنسانَ عن ذاتِه ويسبّب له الاغترابَ والتشريد. والزّمان حاضنٌ الاغتراب عن الذات والغفلة والكفر والنسيان والذي بيّناه في مقال "الوجود والعشق". وتوالي الزّمان ومضيُّه يُفضي إلى اغتراب الإنسان ليأخذ بيده نحو العدم والخوف وليمهّدَ له الوقوعَ في الذنوب والأخطاء.

ومرورُ الزّمان عبرَ اختلاف الّيل والنهار، هو بذاته عدوّ الإنسان. إنّه عدوٌّ مِن الدرجة الأولى. فلا خصم للإنسان إلّا الزّمان والغرق في دائرة الزّمان. ويتسلل إبليس من هذه الثغرة إلى وجود الإنسان ليسرق هذا الوجودَ منه. وهذا هو سببُ طرد آدم وحوّاء من الجنّة. وقد شكى غالبية العرفاء من (الفَلَك) والمثير بأنّ مصطلح (المفلوك) لم يستخدم إلّا في الثقافة الإيرانية الإسلامية دونَ الكشف عن سِرّه حتّى الآن.

إنّ المعراجَ المحمديّ ومقامَ الكشف والشهود العرفاني ناتجان عن تحرير الإنسان من أغلال الفَلك وأصفاد الزّمن. والحقيقة هي أنّ الأفلاك تجري ولكن على الإنسان أن يرجع نحو الخلف وهذا هو معنى الدّين: إنا لله وإنا إليه راجعون!

ولم نسمع قطّ قولَ هلمّوا نحوَ الله، بل تأمرنا جميعُ المعارف الدينية والقرانية بالرجوع والتقهقر.

والتطوّر هو سبيل فلاكة البشر وهلاكه. وهذا ما نشاهده اليوم حيث أدّت جميع المفاهيم النابعة عن فلسفة التحديث والتقدم إلى السقوط والجور والانصياع للهيمنة وفساد البشر - حيث لم يثمر منها إلّا الكفر.

إنَّ دينَ الله هو سبيل التقهقر والعودة في الزّمن الباطني لينتهي إلى الكَفِّ عن مسارِ الكفر الذي سمّي التطوّر. أمّا الاستكبار العالمي هو الراعي الأول لهذه الفلسفة الإبليسية. لذلك لا يخفى على المُشاهد بأنَّ جميع أتباع فلسفة التحديث مجرمون كافرون ومفسدون في الأرض يَظلمون ويُظلمون.

ونحن نعلم جيّداً - وذلك من خلال العلوم ولا سيمّا علم النجوم الحديث ومن خلال ما ورد في القرآن والمعارف الدينية - بأنّ مصير الأفلاك يسير نحو الانهيار والانعدام وهي ما تُسمّى بالقيامة. وهذا الانهيار يشمل روح عبدة النجوم وفكر رعاة التحديث الأفلاكي وحياتهم وجسدهم معاً. ففي القيامة وعند بعث كافة الموتى، يكون

الفلاح من نصيب المؤمنين فَحسب، ليُساقوا بعد ذلك الانعدام نحو الجنّة. أمّا الكفار فيُساقون إلى جهنم هذا الانعدام الفلكي؛ وهذا يعني بأنّ مَن سار خلافَ تحديث وتطوير الأرض والزمان والأفلاك وكان في مسار الرجعة لا يصاب عند انعدام الأفلاك، وسوف تسير روحه نحو جنة الله. أمّا الباقي فيساقون إلى جهنم الفلكي.

والكائنات في حركةِ ابتعادٍ عن الله وهذا الابتعاد ليس مكانياً أو فيزيائياً؛ لأنّ الكائنات لا جهة لهنّ ولسنَ في عِداد اللانهائيات، حتى إذا وصل هذا الابتعاد إلى غايته يوم القيامة، سوف يأمرها الله بالإياب وهذه بداية انطلاقة القيامة والتي بدء يومها المكوّن من خمسين ألف سنة منذ أربعة عشر قرناً ولذا تظهر علاماتُ هذه القيامة رويداً رويداً في الكائنات ومن هذه العلامات الاختلاف الحاصل في نظام الطبيعة؛ وهذا يعني بأنّ الكائنات تعيش مرحلةَ «إنّا إليه راجعون». فويلٌ لمن لا يعود مع الكائنات - على الأقل - ويتمادى في المُضيّ قدماً والابتعاد. وويلٌ لأصحاب التطوّر والتحديث.

وإن ابتلي عصرُنا الحاضر بالأرقِ والاختلالات النفسية والانهيارات العصبية فهو بسبب رجوع الكائنات نحو خالقها؛ فالّيل والنهار يعملان على تغيير وتبديل الهوية المبطّنَة. ومن صالح الإنسان أن يقومَ الّيل أو يقومَ بعضَه بالفكر والذِّكر، فالإعياء والكآبة الناتجة عن هذا العصر لا تعالج بأيّ شكلٍ من أشكال الدواء والمنشّطات والمخدِّرات فينحصر علاج هذا الداء الآخِر الزّماني في التهجّد المعنوي والروحي.

إذن، فكلُّ الكون في حالة الرجوع إلى الله ومن يتمسكون بالتهجد العرفاني سيكونوا في مقدمة هذه القافلة الوجودية وسائقيها؛ هم أئمة الزّمان.

إذن، فأئمة الزّمان في كلِّ عصرٍ هم الذين يسيرون خلافَ مسار تاريخ التطوّر؛ أي هم الذين خرجوا على التاريخ ليقودوه نحو الله وهم أئمه الكائنات. وهذا هو المعنى الآخَر مِن مصطلح (قطب عالم الإمكان) و(الإمام المبين) والذي لجأ لوجوده كلّ الكون فإنّ هؤلاء هم مِن العارفين المتهجّدين المقرّبين والمجتازين للزّمن والتاريخ والحركة الكونية والسالكين نحو عليّين (العلويين[٥]) - هم القرآن الحيّ وهم أمُّ الكتاب.

---

[٥] **وقد نظر الكاتب إلى جذر المفردة فاستخرج مِن (عليّين) مفردة (العلويين) التي تعني عنده السالكين نهج عليّ بن أبي طالب، وليست الفرقة الشيعية المعروفة.**

ومِن منظور فلسفة حركة الكائنات في آخِر الزّمان، يمكن الحصول على فهمٍ أفضل للآية المقصودة وكيف أنّ الله بدّل موقع الّيل والنهار في هذا اليوم الطويل الذي يستمرُّ خمسونَ الف سنة. ولقد أصيبت البشرية بداء الأرق العالمي والذي يتفاقم بشكل مستمر إلّا أن يتفرّغ الإنسانُ فيه إلى الدعاء والذِّكر والمناجاة في منتصف الّيل ومِن دون هذا فإنّه سيهلك مِن فرط الأرق. وهذا الهلاك هو المعنى الحقيقي للتعاسة؛ أي فلاكة آخِر الزّمان.

إذن، فقد تبيّن أنّ كلَّ الشقاء البشري هو حصيلة الفلاكة بالمعنى الأخصّ للكلمة، وسيكون وقعُ هذه الفلاكة على الكافر أشدّ مِن ذي قبل بآلاف الأضعاف وهي في تفاقم مستمِرّ.

أمّا عبادة النجوم فقد كانت من الديانات القديمة على وجه المعمورة والتي ذكرها القرآن. إنّه دين الأفلاك وعبادة الفَلَك الذي ما زال يهيمن على البشرية جمعاء على أرض الواقع؛ وذلك تحتَ مسمّى الإسلام والمسيحية وغيرهما. وعبادة الزمان وعبادة التاريخ والأسر في مخالب توالي الّيل والنهار والوقوع في اليوميات المملّة هو دين الصابئة والمذهب الحقيقي والجوهري لجميع البشرية المتحضِّرة في كلِّ أنحاء العالم. إنّه مذهب الفلاكة. وهذا الدين يسود العالم من عهوده القديمة إلى عصرنا الراهن وبمختلفِ أشكَاله التقليدية والحديثة. فما يُعرض اليوم بمسميات التكنولوجيا الفضائية وعلم الفضاء والنجوم ومعرفة الكون هو الإصدار الحديث للنسخة التقليدية القديمة من الكهانة وعلم الكفِّ والتنجيم والعرافة. إنّه علم فلاكة البشر ولهذا حرّم عليٌّ (عليه السّلام) هذا العلم. كما نشاهد في وقتنا الراهن نشاطَ أحدث أقسام هذا العلم والفنّ في هذا المجال. فأصحاب هذه التكنولوجيا وأرباب القوى الاستكبارية والتوسعية وأئمة الكفر والضّلال ومنذ القدم كان هذا العلم في بلاطات السلاطين، وأخذ بيد للمستكبرين نحو ممارسة الظلم والجور.

مع هذا فإنّنا نشاهد في وقتنا الراهن بأنّ الكثير من الحسابات والبرامج الحكومية الطويلة الأمد وعلوم النجوم قد باءت بالفشل وكُتب لها الانهيار والإبطال مما يؤشّر إلى تقهقر ورجوع الكائنات، والذي يبطل حسابات العلوم الفلكية لدى البشر، والكثير من الأزمات إنّما حدثت جرّاءَ هذا الإبطال. ولا يدلّ هذا إلّا على حركة الحضارة المفلوكة والتكنولوجية نحو الانقراض والانهدام التامّ؛ لأنّ التكنولوجيا نشأت بالأساس على مبدء السرعة والتّسارع والزّمنية وهذا يعني بأنّها فَلَكية ومفلوكة. وأساساً فإنّ التكنولوجيا تقدّمُ أكبر نموذج لفلاكة البشر طوال التاريخ.

فإنّنا اليوم نشاهد وبوضوح هلاكَ البشر وفلاكته في قبضة التكنولوجيا فهي داء يعادل الفلاكة البشرية ورمزها المجسَّد؛ لأنّ التكنولوجيا الحديثة قامت وفقَ حسابات زمنية دقيقة، فهي تجسيدٌ لداء الزمن (العصر) وخسران البشر فيه. ونعلم بأنّ القليلَ مِن التّطور في النجوم سيؤدي إلى انهيار جميع المحاسبات الإلكترونية والإنترنت والأقمار الصناعية وستسحق كلّ هذه الحضارة المفلوكة تحت العجلة العائدة بالفلك نحو ربها. ويعدّ هذا توفيقاً مفروضاً ولطفاً إلهياً يشمل الإنسان العابد للتكنولوجيا ليخلّصه قسراً من أسر إبليسها.

ونعلم أيضاً - ووفقا لما توصّل إليه علم النفس الحديث - بأنّ الروتين اليومي والملال الناتج عنه هو السبب الرئيس في شقاء وفلاكة العالم وهلاك البشر الحديث النفسي مِن (الرتابة). إنّه تعبير آخر للفلاكة. والسبيل الوحيد لتحطيم شوكة هذا الخنوع النفسي هو اللجوء إلى التهجّد الروحي والمعنوي.

وما أتت به جميعُ الشرائع السماوية والديانات الإلهية، يمثّل سبيلَ نجاة البشر مِن الانصياع للفلك والفلاكة. والتّقوى - ككيزة الدين الأساسية - لا تعني في الواقع سوى العمل خلافاً للروتينيات، هي حربٌ ضدّ الفلاكة، فلا تأتي الخصال البشرية وعاداته إلّا نتيجة لأَسره في الزّمان والزّمنية وحركة الزّمان والرتابة اليومية. والتكرار المُملّ للّيل والنهار والمبادرة بالأعمال المُعيّنة وفقاً للعادة تستعبدُ الفكر والروح بالسلاسل والأغلال. إذن، أصبح مِن الواضح بأنَّ التقوى ومكافحة الإرادة والعزم، هو حربٌ على العادات والإصابة بداء الزّمن والفلاكة؛ حربٌ ضدّ العصر!

«قَسَماً بالْعَصْرِ، إنَّ الْإِنْسَانَ لَفي خُسْرٍ، إلاَّ إذا آمَنَ وَأصلحَ أعَمالَه وَرجع، وتوسّلَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ» - سورة العصر.

ونعلم بأنّ كلّما تحدّث القرآن عن الإيمان، أردفه بالكفّ والتوبة والإنابة؛ وهذا يعني تحطيم الزّمن والقيام خلافاً لحركة الزّمن والتاريخ وحركة المجتمعات.

ووفقاً لما جاءَ فإنّ معنى هذه السورة الحقيقي والعملي يكون كالآتي: والعصر، إنّ الإنسان في خطر وفي خسران دائمين إلّا إذا عاد ورجع بأعماله وتحلّى بالصبر في هذا المضمار.

ومِن أسباب هذا الخسران هو النسيان ونسيان الذّات. وعلاجه الذِّكر وذلک يعني أن يتذكّر الإنسانُ أعمالَه وأعماقَ ذاته.

والنّاس لا تراجعُ نفسها - وذلک لمدّة قليلة - ولا تتذكّر مسارها الخاطئ الذي سلكته إلّا عند وقوعها في المصائب والفجائع والخسران والانهيار.

وفي الواقع، فإنّ الزمنية تؤدي إلى انحطاط العقل والذكاء والذّاكرة. فالإنسان يسير نحو الأمام بعشوائية حتّى يكبو في مكانٍ ما. إذن، فالتوقّف عن التّقدم هو السبيل الوحيد لمنع حدوث الكارثة والسقوط والفلاكة.

الفصلُ الرّابع

فلسفةُ المُهَلِ والفُرَص

يُعتبر عمرُ الآدمي في العالم الترابي مبدءَ كلِّ الفُرَص والمُهَل: فُرصُ التكوين والوجود مِن العدم، ومُهلة التعرّف على الذي منحه هذه الفرصة ليلتقي بجمال الوجود.

إنّ جسدَ الإنسان برمّته ومصادر حياة البشر وكافّة الغرائز والحواسّ والذكاء والعالَم الذي يعيش فيه، هو مشهدٌ لهذه الفرصة وتلكَ المُهلة.

إنّ موقعنا في العالم الترابي وتمتعَنا بالفُرَص والمُهَل، لا يعدُّ على الإطلاق رأسَ مال وجودِنا، بل موقعنا الحقيقي هو الظرف الوجودي الذي كان سببَ خِلقتنا وخَلقِ الذات من العدم.

ومن يتصوّر جسمُه المتحرّك هو وجوده الحقيقي، يكونُ كَمَن اشتبه به الأمر واعتبر سيّارتَه هي المقصد.

فجسمنا سيّارةٌ يجب أن تصل إلى مقصد الكون وتتكوّن، ولكنَّ غالبيةَ الناس يكرّسون عمرَهم لخدمة هذه السيّارة.

فحياتنا الترابية ليست حياةً ووجودنا الماديّ ليس وجوداً بل آلية وإمكاناً للحياة والبحث عن الوجود.

وأمّا في جوفِ هذه الفُرص والمُهل الدنيوية، فهناك فرصٌ ومُهَلٌ خاصة وخارقة تمنح أن نقطعَ مسير مئة عام بليلة واحدة وهي عندما يحالفنا الحظّ بلقاء إنسان كاملٍ يحظى بالـ(وجود) يوقظنا مِن السُّبات ويعيدنا نحو الذات ويحيينا. إنّه نموذج من الوجود والحياة الحقيقية ليذكّرنا بما كان يجب أن نكون.

ودائماً على وجه المعمورة هناك مَن يمثّل الحياة والوجود الإنساني ليعينَ الآخَرين على بلوغ الحياة والوجود الإنساني. إنّه يهبُ الحياة لمن يطلبُها. وهذه هي المهلة الأخيرة للكينونة.

وأسلوب غالبية الناس لم يكن إلّا عبادة السيّارة وهو تعبيرٌ آخر لعبادة العدم. إنّهم يعبدون الإمكانيات والكماليات ولا يرغبون في الحياة بل يعبدون ما يؤدّي إليها والتزيّن به للشعور الزائف والعابر بالحياة ليشعروا - بعد إشباع رغباتهم - بالعدم وليلجأوا مرةً أخرى كي يجدّدوا تلك الإمكانيات ويضيفوا عليها. إنّهم يقومون فقط بتبديل موديل

سيّاراتهم دون أن يحرّكوها. إنّهم يركبونها للعب وللتّزمير بأبواقها. يجب تسمية هؤلاء بأصحاب المزمار حيث يمثّلون للآخرين دورَ الكينونة والوجود، وبالتالي يخسروا في هذا الغمرة فُرَص الحياة ومُهُلاتها، بل جميع إمكانيات الوجود وفُرصاته.

وعندما يواجه هؤلاءِ العابثون إنساناً وجودياً، يحاولون تعلّمَ دور منه ليضيفوه إلى سائر أدوارهم واستعراضاتهم العدمية. إنّهم مقلدون للحياة فقط ويمتهنون لعب الحياة ويؤدّون دور الأحياء - ولا غير.

إنّهم خسروا الفرص والمهل ليحاولوا بعد ذلك القيام بدور الإنسان المعدوم.

وهؤلاء هم الخاسرو فرصهم ومهلهم. وبعد ذلك سوف يحاولون أن يمثّلوا دورَ الأُناسِ المعدومين.

وهؤلاء يستخدمون الخسارة والهلاك والموت والفلاكة أيضاً لغرض تبديلها إلى نصٍّ استعراضي في الحياة فهم يمثّلون دور الموت والفناء. إنّهم التائهون والفانون في وادي الإمكانيات والفُرص وهم ضحايا خُدَع الزّمان وسِحره؛ لأنّهم يُفوّتون الفرصة والمهلة تلوَ الأخرى ويستنزفون العمر المتبقي لهم بالهلاك والفناء، على أمل النجاة والحياة المجددة، وكأنّهم يردّدون نجوى إبليس الزمنية حين يقول: «هناك فرصة ولا حاجة للاستعجال!».

ولن يتجاوزَ هؤلاءِ البلوغَ العقلي فيقضون عمرهم في طورِ الطفولة والتمثيل. وما يتوسّع في ألعابهم هو تكاليفه الباهضة وعذابهم المتزايد فقط. إنّهم أطفال على هيئة عمالقة؛ شاخوا في طفولتهم وإن بلغوا عقدَ حياتهم السّادس. فلا يستطيعون اللعبَ بعدُ، وقد يغيّرون أدوارهم ويحوّلون بوصلة نزواتهم نحو التوجّه الإيماني، ويلعبون باسم الله والدين والصلاة ذلك لأنّ اللعب لم يَعُد يلبّي رغباتهم، أو لم يتمكنوا منه للوهن الذي أصابهم أو ربما لأنّهم لم يجدوا من يشاركهم اللعب.

والذي يسبب أن يتبدّل عمرُ الإنسان في الدنيا من فرصة للتمتّع بالوجود إلى ساحة لنسيان غاية الحياة والغفلة، هو زمنية العمر؛ بمعنى نجومية الفرصة وفلكيتها حيث تبدّل العمر إلى السنين والأشهر والأيام وهذه فلاكة فرصة الإنسان في العالم. إنّه تبديل جواهر الفرصة إلى زيف الساعات والأسابيع والسنين. إنّها كتبديل معنى إلى مادة قابلة للاستهلاك والأكل. تبديل الكيف بالكمّ وتبديل الدرّ الثمين بمئات الآلاف من الخرز الزائفة القابلة للاستهلاك وتبديل الخلود إلى أعداد وأرقام وفي النهاية إلى نقود. إنّه تبديل الوجود إلى النقود.

ويتسائل مَن فوّت الفرصة في نفسه ويحدّث نفسه قائلاً: كيف أقضي ما تبقّى من حياتي وأتمتع بها دون الشعور بالمَلل؟ إنّه إنسان معدوم خاسر الفرص حيث قسّم حياتَه إلى مراحل كالدراسة والعمل والزواج وشراء دار وبستان؛ وما إلى ذلك، وبالتالي تقاعدَ. إنّه متقاعد بشَكلٍ مسبَق وكلُّ هذه المراحل هي تعبير عن تقاعده وهو كما عبّر عنهم القرآن من «القاعدين».

إنّ تقسيم العمر إلى فترات زمنية هو الموت والهلاك التدريجي بعينه. إنّها مِن مبادئ الإنسان التكنولوجي والمفلوك في آخِر الزّمان والذي شيّد بنيان حياته على أساس فلسفة التطوير والتقدّم. والتقدم في النهاية هو احتياطيته من الأموال. فمن تقدم أكثر فقد جنى أموالاً ونقوداً أكثر. والنقود هي التي سُرعان ما يتناولها الورثة ليعدموها ويلعنوها لأنّها نضبت بهذه السرعة؛ نعم نضبت النقود.

الفصلُ الخامس

العبودية؛ الأنواعُ والمراتب

العبودية تعني العبادة، والعبادة نتاجُ العشق، والعشقُ نتاجُ المعرفة. وأفضل المعارف المنتجة للعشق تتمثل في الوصال الجمالي والكمالي للمعبود.

وللعبودية أنواع ومراتب أدناها الحمد الكلامي والتعظيم والتكريم والتحفيز السلوكي والأدبي عبرَ العشق. وأكملها صورة إقامة الصلوة والصلوات الأخرى والأدعية. ثم الصوم والزكاة والحجّ والجهاد.

وهناك مرتبة أرفع من العبودية تتمثل في الطاعة الخالصة للمعبود وامتثال حكمه الذي أنزله بواسطة رُسله والذي يتلقاه الضمير أيضاً.

فإن لم تكن الطاعة خالصة للمعبود دون أي سؤال وجواب، لم تكن العبادة عبر الكلام والأدب والسلوك - كالقيام بأعمال كالصلوة - سوى أعمال ريائية متملقة وخادعة تهدف إلى خداع المعبود؛ كما نبذ هو - وبنبرة عالية - هذا النوع من العبادة السهوية والمرائية ووصفها إنكاراً للدين، وندّد بفعل هؤلاء.

وهذا يعني بأنّ من لا يتبع في أعمال حياته الأعمالَ الإلهية والفضائل الدينية فهو - في الواقع - يصلّي رياء ويُعتبر مِن مصاديق المخالفين لدين الله والماكرين على الله. والله يمكر معهم ومِن مكره أن يبدّل العبادةَ لديهم إلى عذاب ويفضحهم ويكشف عن وجههم القبيح.

إنّ الطاعة الخالصة للمعبود هي الرزق الحلال وتجنّب المحرمات والصدق واجتناب الكذب والرياء، والقناعة والصبر والابتعاد عن الحرص وعن أكل الربا والاستعجال، والتودّد للنّاس والسّخاء والكفّ عن البخل والتهمة وعن اكتناز الثروات؛ والالتزام بالحياء والعفة والبعد عن الزنا والمجون، وجميعها أعمالٌ فردية خاصة لدى العلاقة مع النّاس والعالَم.

وأما العبودية الأخرى والتي ترأّست رسالة الرُسل، هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتعني هذه الشعيرة تعريف النّاس بالله وفضح الشيطان وعمله ويستند إلى نمطين عامّين: ١. التحدّث والمخاطبة؛ ٢. السلوك والخُلق

الحسن؛ فإن لم تصحّ الأعمال والأخلاق، سيصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالصلاة، أمراً مرائياً من مصاديق الكذب على الدين حيث هذا العمل يستحق العقوبة والعذاب - لا الأجر والثواب.

إذن، فدعامة العبودية هي الطاعة المخلصة للأحكام الإلهية وإن لم تكن، فتغدو العبادات الكلامية كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شأناً مُهملاً متروكاً بل عملاً معارضاً للدّين وفي حكم المحاربة مع الله.

فالعبادة العملية والتخلق بالفضائل الدينية كصدق الحديث والقناعة والسّخاء والصبر والحياء والوفاء، أوجب من الصلاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعبادات الكلامية والسلوكية. فمن تركَ ذاك وتمسّك بهذا كُتب منافقاً والمنافقون أسوأ خَلقِ الله عنده.

والقصد مِن إقامة الصلاة بتصريح القرآن هو ذِكر الله؛ كذكر الحبيب. ويجبُ أن يؤدّي هذا التذكار بلقاء الله. ومِن هنا فقد أُعتبرت الصلاة معراج المؤمن. إذن، فيجب أن يحنّ قلب الإنسان إلى الله فسيكون هذا الحنين أوضح دلالة للعشق المتأصّل في الذات. فلا عشقَ دونَ حنين ولا حنينَ دونَ ذِكر ولا ذكر دون القيام بصلاة تؤدّي إلى لقاء المحبوب ووصاله. وستكون إقامة الصلوة من دون هذه المراتب، عملاً فاسقاً مرائياً وإلحاديّاً يستوجب العذاب. ومن هذا المُنطلق فإنّ إقامة الصلاة تختصّ بالمؤمنين وهم عشاقُ الله - دون غيره.

ووفقاً لما قلناه، فإنّ مَن يحنّ قلبُه إلى الله فمِن الأفضل ألّا يصلي فإنّها حينئذ معصية أكبر مِن الزّنا.

وقد ورد في القرآن الكريم بأنّ ذِكر الله أفضلُ من إقامة الصلاة ولو كانت الصلاة فارغة عن ذِكر الله فمن الأحرى أن لا تُقامَ لأنّها ووفقاً لحكم الله في القرآن، عليها أن تُقام لذِكر الله.

إذن، فذِكر الله الناتج عن الحنين إليه، يمثّل عبوديته وعبادته. وأهل الذِّكر - وليس أهل الدعاء والوِرد - يستغنون عن إقامة الصلوة ولربّما تحجب إقامة الصلاة الذِّكر عند هؤلاء؛ وهذا يعني بأنّ إقامةَ الصلاة وسيلةٌ لبلوغ مرتبة الذِّكر. وهناك مراتب في مرتبة الذِّكر وردت في القرآن كمرتبة القانتين والساجدين والراكعين وأرفع مرتبة عند ذِكر الله، هي مرتبة الساجدين.

وأمّا العبادة التي تفوق الذِّكر، هي التفكر في صفات الله والتي تمهّد للقاءه. فالتفكّر في ذاتِنا أفضل أنواعِ التفكّر في الله. ويعني البحث عنه وإدراكه في الذات. وكما ذكرنا فإنّ الرافد لكلِّ هذه العبادات هو إظهار الطاعة في الأحكام الإلهية والحياة اليومية وتتجلّى في اتّباع الأخلاق الحسنة.

ومن هذه الرؤية فإنّ معرفة النّفس هي أفضل أشكال العبادة وهي التحابب مع لله وهي مصداق لأدعوني أستجب لكم وهي دعوة مِن قِبَلِ الله في الذات وتقديم الوجود إليه وفناء الإرادة في إرادته. إنّها مرتبة الإخلاص ومقام عِباد الله المخلِصين؛ مرتبة عشّاقه وعبدته الخُلّص المنقطعين إليه والمتفانين فيه. إنّهم مظهرٌ مِن إرادته، وفي النّهاية تجسّدٌ لجماله عند سائر المؤمنين. وهذه هي مرتبة الإمامة والولاية الوجودية؛ غاية العبادة والعبودية والعشق.

وأمّا أفضل عبادة لمن لم يدرك مرتبةَ الإخلاص مِن سائر المؤمنين، فهي البحث عن والعثور على أحد هؤلاء المخلِصين واتخاذه مرآةً للقاء الله. فلا عشق وعبادة دون لقاء.

إذن، فبلوغ مرتبة الإمامة واتّباع الإمام، هما غاية العبادة، والإنسان من دون إمام يُدعى كافراً. وكما أنّ هذا الإنسان الذي لا إمامَ له فارغ عن العشق، فالصلاة ليست صلوة؛ لأنّ الصلاةَ عبادة.

والعبادة هي أيُّ عمل يذكّرُ الإنسان بالله، كخدمة الناس بإخلاص دونَ رياء والجهاد والدفاع المستميت عن أعراض النّاس ودينِ الله. وذكر الله عبادة، كزيارة المَرضى والقُرب مِن الفقراء والمشاركة في تشييع الجثامين وزيارة القبور وذِكر الموت والتفكّر حوله.

وتُعدّ جميعُ التفكيرات عن ما وراء الطبيعة أو قراءة كتاب يذكّر الإنسانَ بالله عبادةً. وخلافاً لذلك فما يلهي الإنسان عن ذِكر الله هو فسق ومنها ولربما صلاة وحجّ لم تؤدّيا إلى ذِكر الله، بل هما مجرّد أوراد وأعمال رمزية جوفاء.

أمّا ما ذَكّر بالله واليوم الآخِر مِن حديث وأعمال فيُعدُّ مِن أفضل العبادات دونَ شكّ. وأمّا الفقر والوحدة والمرض، فتُعتبر من العبادات الخاصة؛ لأنّها - وبشَكل عامّ - تسبّب ذِكر الله.

وللعبادات جوهر مزدوج: ١. هناك عبادات يكون الإنسان فيها ذاكراً لله (العبادة الذاكرة)؛ ٢. ومنها عبادات يكون الإنسان مذكوراً مِن عند الله (العبادة المذكورة) وهي حصيلة العبادة الأولى أي العبادة الذّاكرة. ومرتبة دائم الصلوة تُصنَّف ضمنَ العبادة الثانية.

كما يُعدّ السماع العرفاني في نشوة الخلسة والوجد، نوعاً من العبادة المذكورة وتنبعاً من العبادة الذاكرة. فالمذكورية بالعبادة أجرٌ للدوام بالعبادة الذاكرة. والوحي والإلهام والكشف والشهود العرفاني أيضاً من العبادات المذكورة والتي ينادي بها الربُّ عبدَه العارف. وفي الحقيقة فإنّ الذِّكر القلبي ينشأ مِن العبادة المذكورة؛ لأنّ الله يحضرُ فيها - في قلبِ المؤمن.

وإنّ تخاذلَ القلب واليدين عن العبادة يحدث عندما يفقد الإنسان المقوّماتِ العمليةَ الضرورية للعبادة والكفاءة لذلك. وهناك صُدَفٌ دون تخطيط مسبَق توقظ ذِكر الله في قلبِ الإنسان وهي مِن قبيل العبادة المذكورة حيث ينادي الله عبدَه بصفة هذا النداء أجراً لما قام به العبدُ من حسنات.

فالعبادات الخالصة في الحقيقة أجرٌ للأعمال الخالصة؛ لأنّها تغشّي وجود الإنسان بالنشوة الروحية، وتزيل أوساخ الدنيا. ومِن هنا جعلوا العبادات مِن فروع الدّين وإنّما الفروع هنا بمعنى الثمر وليست معنى عرضياً وثانوياً مِن حيث درجة الأهمية؛ لأنّها النتاج الطبيعي للتديّن والتقوى ولهذا اعتُبر الإكراه في العبادات مِن المعاصي الكبرى حيثُ يمقته الله ويعذِّب عليه؛ لأنّه كالحبّ المهووس الذي هو الفسق والزنا بعينه.

وبالنسبة للمؤمنين فكلُّ شيء لم يكن فيه ذِكر الله فهو فسق وهذا كلام الله في القرآن. كما أنّ كلَّ شيء حضر ذكر الله فيه فهو عبادة. فالعبادة ليست نمطاً وشَكلاً مِن الكلام والسلوك والأعمال ولعلَّ بعض الصلواة تُعدّ معصية لِذكر كلِّ شيء فيها إلّا الله.

ومِن أكمل العبادات، زيارة المؤمنين المخلصين لما فيها من الأثر الذي ربما يؤدّي إلى لقاء الله. ونُقل عن النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) بأنّه قال: «مَن زارَ مؤمناً كمن زارَ الله».

ولو أدّى النظر في جمال الطبيعة إلى ذكر الله فهو مِن العبادت الجليلة.

كما أنّ ذِكر الأنبياء والأولياء يُعتبر عبادة عظيمة.

والتفكّر في معنى الكون بل كلُّ فكر يَجعل علّةَ العلل في الحُسبان والغاية، فهو عبادة؛ لأنّه ينتهي إلى الله.

والتعليم والتعلّم والتربية بقصد معرفة الله والتعريف به عبادة.

وأمّا ما ينتج عن تفكّر الإنسان في خلواته ومعرفة النفس والبحث عن الله في الذات، فأرقى أنواع العبادة.

فالعبادة تأتي من المعرفة لتوصلنا إلى معرفة أرفع قدراً، وأمّا العبادة الفارغة عن المعرفة والتي لم تؤدِّ إلى النموّ العرفاني فهي عبادة سهوية وربما تكون معصية. ولعلَّ ترديد ذكر «الله .. الله» سهواً هو من المعاصي ويحجب الاتصال بالله. وهذا ما يقوله بايزيد البسطامي في حكمته حيث أشار: «أفنيتُ عمري بذكر الله واكتشفتُ صدفةً بأنَّ ذكري هو حجابي».

ولو ترافق الذِّكر والنجوى بترديد الأسماء الحُسنى مع الذِّكر القلبي والشعور بالحنين فربّما أدّي ذلک إلى لقاء الله بتجليات شّتى. سأذكر لكم تجربة شخصية في هذا المجال: قبلَ أعوام عِدّة وفي شتاء ثلجي ويوم عاصف ذهبتُ بمفردي نحو مرتفع جبليّ مشياً على الأقدام. ففي الطريق أذهلتني مشاهدة الجمال الخلّاب وعظمة الطبيعة وبدأت بترديد ذِكر الله واشتدّ وجدي وارتفع ترديدي للذِّكر وإذا بشيخٍ أشيب يخطو جنبي وكان خِضرُ طريقي وإمامي، ووسطَ هذا الذهول في الجبل الذي كان أَمامي التقيت بنفحة قدسية في غاية الجمال مِن حضور الله - يستحيل وصفها. وقد حدثت لي هذه التجليات مرّات عِدّة حتّى وصلتُ إلى اليقين في ذلك. إنّها ليست معرفةً نظرية أو تاريخية أو روائية. فمن يبحث عن وجهِه يلاقيه وهذه هي الغاية مِن العبادة والعبودية التي تنتهي بأفضل الذِّكر والعبادة.

وذِكر الله كركيزة العبادة الأساسية يعني الرجعة الباطنية للأزلية ومبدأ الكون والحضور في هنيهة «ألستُ بربّكم» ولقاءه. فالعبودية تعني الرّجعة بالزمان والتوقّف: التوقّف عن التّقدم ثمّ السّير بالاتجاه المعاكس في القلب والفكر والنفس؛ لأنّنا التقينا بالله في الأزل وقد سُجّل وكُتبَ هذا اللقاء والجمال في وجودنا وعلينا الآن استخراجه مِن ذاكرتنا. هذا هو معنى الذِّكر والتذكّر ويحصل هذا الاستخراج مِن الرجعة عن التاريخ البشري والتاريخ الكوني والأفلاكي، وهو يعني الخروج عن الأفلاک والزّمان - كما نال محمّدٌ المصطفى لقاءَ ربّه لدى خروجه من الأفلاك وعند السير نحو المعراج. فالذِّكر يعني العوم عكس تيّار الزمن في ذواتنا. إنّ هذا الحدث يتحقّق أيضاً في أسلوب

الحياة ونمطه؛ لأنّ الإنسان - وبطاعته للأحكام الدينية وفطرته الأخلاقية - سيتوقّف عن التقدّم بمواكبة الزمن الأفلاكي وسيرجع إلى الوراء. والإنسان المولع بالتقدّم لم يكن بوسعه أن يكونَ مِن أهل الذِّكر والعبادة. فالذِّكر – إذن - صراعٌ للخروج مِن قبضة الزمان وأسره لبلوغ الحاضر. فهو - كما تمّت الإشارة إليه في مقال «فلسفة الفلاكة» - نفس الحرب ضدّ فلاكةِ الرّوح والنّفس؛ لأنّ هذه الفلاكة وذلك الأسر في الزمن أساسُ النسيان. ومِن خلال ما جاء في سورة الدهر في القرآن نرى بأنّ الإنسانَ أسيرُ الدهر (الزمن الفَلَكي) وقد ابتلي بالنسيان فلا يتذكّر ما جرى عليه ومِن أين جاء وإلى أين يمضي.

إذن، فالذِّكر ضدّ النسيان والفلاكة وعبادة التاريخ والتقدّم المتمثل اليوم في عبادة التكنولوجيا. وهذه التكنولوجيا النواة المركزية الجاذبة والساحرة والباعثة للنسيان والاغتراب عن الذّات وألُدّ الخصام للذِّكر والفطنة واليقظة والعبودية.

الفصلُ السّادس

معرفةُ الزمانِ العرفاني

إنّ الحداثة من وجهة نظر، تمثّل عهدَ سيادة فلسفات التاريخ والتي برزت على شكل أيديولوجيات مختلفة كالشيوعية والإمبريالية الجديدة والصهيونية والنازية. ولقد أدّت هذه الفلسفات التاريخية إلى عنصريات متسترة بالفلسفة، كما ظهرت بشكل طوباويات تزيّنت بثوب حضاريّ كالحضارة الغربية، والحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية، والحضارة العربية، والحضارة الإغريقية، والحضارة الأنجلوسكسونية، والآرية، والهندوسية وما إلى ذلك. وكنموذج، لقد شاهدنا الشّيوعية قد انتهت بتبرير ما قام به الاستعمار الغربي وتقديسه.

والمراد مِن هذا القول هو أنّ كلَّ شعبٍ يفسّر التاريخَ البشري مِن منطلق موقعه القومي الرفيع المزعوم لينال بما يقدّم من تفسير بعلوّ كعبه على سائر الشعوب وليتمخض من جرّاء هذا التفسير ظهور فلسفة خاصة وأيديولوجية فريدة. إنّ هذا النوع - مما يُسمّى بفلسفة التاريخ - انتهي في نهاية المطافِ إلى أصالة العالم الأثري القديم وعبادة الأساطير القومي، كالوحدة الفارسية، والوحدة العربية، والوحدة الأمريكية والمساعي الأخيرة المبذولة من قِبل دول أميركا اللاتينية لإحياء حضاراتهم القديمة مثل فنزويلا والتي طرحت مشروع الحضارة البوليفارية وإحياء حضارتي ألمايا والأزتيك البائدتين. وأشهر هذه الفلسفات المزيّفة تتجلّى في الصهيونية والتي تنوي الهيمنة على جميع العالم.

إنّ مظاهر العنصرية الفلسفية والدينية والأسطورية الحديثة، تعبّر عن حقيقة كامنة في آخِر الزّمان. فكأنّما نشتم رائحة موت هذه الحضارة التكنولوجية وهلاكها وفلاكتها، حيث يتوسّل كلُّ شَعب بماضيه الغابر لإنقاذ نفسه؛ إنّه ماضٍ محرّف، وملنخوي، وموهوم.

وقد لبست هذه الموهومات ثوبَ فلسفة التاريخ.

ولكن هناك ثُلة، ومن بين هذا الكمّ من الفلاسفة الكبار وأصحاب المدارس، مَن نجح في الوقوف على إدراك نسبي لفلسفة التاريخ وجوهر الزّمان حيث قدّم عرضاً ربّما أقرب للواقع مِن سيرورة الحضارة البشرية وجوهر آخِر الزّمان وفي طليعتهم مارتين هيدجر وهوسرل وشبينجلر ونيتشه وجميعهم من الألمان وكذلك الفيلسوف

الفرنسي الأكثر معنوية وعرفاناً، هنري برجسون والذي قدّم أكثر فلسفة الزمن واقعية وعرفانية، وهو الوحيد ممن تحدّثوا في عصرنا الرّاهن عن الزّمن الباطني أو الروحاني. ونشاهد حالة واضحة للعيان مِن المسكوت عنه والصمت والمقاطعة لتداول آراء هؤلاء الكبار، ومما يؤشّر إلى مدى إصابة عصر العلم والعقلنة بداء خداع الذات والبلاهة وفرض الرقابة على الحقيقة.

ويعدّ هيجل - والذي أسموه أكبر فلاسفة التاريخ الحديث في العالم - أكبر مزيّف للتاريخ في فلسفته حيث جعل التاريخ تجسيداً لله وللمسيحية الأرستوقراطية الأوروبية لينتهي بتأصيل العنصرية الأوروبية. وحصر هيجل مستقبل الحضارة البشرية في الغرب باعتبارها الحضارة الحقة التي يتزعمها نبلاء أوروبا كأرستقراطية بلاطية-كنسية.

وشكّلت آراء مفكّرين من أمثال نيتشه، وشبينجلر، وهيدجر نقطةَ المواجهة لآراء هيجل وتوقّعوا نهاية الحضارة الغربية وانهيارها في النطاق التكنولوجي.

فيا تُرى أين المفكرون المسلمون والعارفون ليبيّنوا معالمَ العالم الحديث من وجهة نظرٍ إسلامية وقرآنيه؟ فكان في عصرنا مفكرون من أمثال محمّد إقبال والدكتور علي شريعتي، قدّموا وجهة نظر آخِر زمانية وإلى حدٍّ ما إسلامية عن العالم الحديث تشبه ما توقّعه هيدجر وشبينجلر حول انهيار الحضارة الغربية الجاثمة على صدر العالم وزوالها. كما قدّم لنا وجهاً آخر من الحضارة الغربية جلال آل أحمد، وحذّر هذا الكاتب الإيراني الراحل، عن أخطار الحضارة الغربية في آخِر الزّمان في كتابه الشهير "التغرّب[٦]". وطرح الدكتور فَرديد، أحدُ أبرز المفكرين الإيرانيين، في سنوات إيران الأخيرة، شواهدَ فلسفية عن آخِر الزّمان وعن فلسفة التاريخ لم يُتح له المجال وللأسف لبسطها ليوافيه الأجل غير معروفٍ لم يَنَل شأنَه. وذلك لأنَّ آراءَه أتت من مُنطلق مَحليّ وبديع لا تؤطّر بإطار خاصّ وربما قوبلت بالتسخيف والاستهزاء. وأما مَن تأثّر بآراءه فقد اتخذها مطية لنشر رغباته المتشدّدة والفاشية إمّا بإطار قومي فارسي وإمّا بإطار إسلامي شيعيّ طائفي. ولا ننكر بأنّ آراءه كانت تحظى

[٦] عنوان الكتاب بالفارسية "غَربْ زَدِگي" أي "عقدة الخواجة" - كما هو رائج في الثقافة العربية. وتعني الحبّ لكلّ ما هو غربي والرفض لكلّ ما هو عربي، وتمّت الترجمة إلى "التغرّب".

ببعض النظرات العنصرية، إلّا أنّ مما أثار الشكوك حول هذا المفكّر هو تعاونه مع حزب "رستاخيز[٧]" في السّنوات التي سبقت الثورة الإسلامية. ولكن - ومهما كان - فإنّ هذا المفكّر كان من أبناء هذا الوطن وإن لم يحصل على إقبال الجماهير وقادة الثورة - ويا لَلأسف لهما - وتاجر بعض أنصاره بآراءه بشِكل منحرف. وهذا من بلايا وآفات الشمولية الفكرية والعقائدية والدينية التي حدثت بعد الثورة والتي أمست حائلاً دون ازدهار أيّ فكر مبدع إلّا إذا كان في إطار المصالح السياسية العاجلة والضيّقة مما يشكّل مأساة وطنية. فالرّاحل فَرديد هو المفكّر الوحيد الحامل لأفكار بديعة في كلِّ إيران والعالم الإسلاميّ بأسره. إنّه استخرج مِن صميم الفلسفة والتاريخ والقرآن علائم قيّمة عن آخِر الزّمان يجب أن تلقى نصيبها مِن الاهتمام والدراسة؛ لأنّ تراثه الفكري لا يحمل قيمة رفيعة وحيوية لعهدنا الحاضر فَحسب، بل بإمكانه تغطية وتلبية جانب مِن فراغنا الأيديولوجي، كما يمكنه إعانة المفكّرين ورجال الدولة في مخططاتهم الاستراتيجية - وإن كانت مادة آراءه لا تزال من جنس الموادّ الخام والأولية التي تحتاج إلى المزيد من التشذيب والبحث وفقاً للمعايير القرآنية.

وأمّا النصيب الأوفر من مؤلفاتي فهي تدور حول فلسفة التاريخ والقرآن والإسلام وتتناول بشكل مباشر هوية البشر الحديث في آخِر الزّمان وتوضّح وتجيب على الكثير من المجهولات والمجعولات الفكرية والعقائدية والثورية لمجتمعنا ونظامنا ودشنت علم معرفة الزمان مِن منظورٍ إسلامي وقرآني وشيعي، كما كشفت زيفَ فلسفة التاريخ الغربية دون إنكار حقّ الحضارة الغربية.

ولقد أوضحنا بأنّ التغرّب لم يكن مجرد قضية سياسية واقتصادية استعمارية وإنّما حدثٌ تاريخي وصلَنا من أعماق التاريخ وهو جزءٌ من فلسفة التاريخ وتاريخ فلسفة البشر ومِن الأصح أن نُطلق عليه التكنولوجيّة بمعنى مذهب أصالة التكنولوجيا والمتجذّر مِن نفس البشر الواحدة التي تقودها الحضارة الغربية في عالمنا اليوم. ولو لم يكن الغرب قائداً لها لأتت القيادة من جانب آخَر مِن العالم، كما تستمر حتّى لو سقط الغرب لتبلغ غايتها التاريخية ولتنهار مِن الداخل. إنّه ليس التغرّب بل مرض التكنولوجيا ومذهب الإرادة بظهور النّفس الأمّارة.

والوجه الأسوأ والمأساوي لفلسفة التاريخ الغربي وفلسفة التكنولوجيا ومذهب الإرادة بظهور النفس الأمّارة يكمن في عدم رغبته بفهم ذاته. ومن هنا ففي النطاق الفلسفي يجب تسمية هذا المذهب بمذهب البلاهة وخداع

[٧] ويمكن ترجمته بـ(حزب البعث) الذي أعلن عن إنشاءه شاه إيران في السّنوات الأخيرة من حُكمه وكان مِن أسبابِ سقوطه.

الذّات؛ لأنّ تاريخ الفلسفة الغربية وفلسفة التاريخ التكنولوجي يقوم على أساس النسيان واغتراب الذات، فالوعي واليقظة فيه لا تعني إلّا الانهيار والزّوال وهو كامن في ذاته.

ويشكّل مفكرون من أمثال نيتشه وهيدجر مظهراً لوعي الحضارة الغربية التكنولوجية ويقظتها، لكنهم مهمشون متهمون بالفاشية، كي لا يُقبِل أحدٌ على آراءهم ودراسة أفكارهم.

وكان هوسرل صديق هيدجر وأستاذه في مقدمة الذين انتبهوا لأزمة الغرب وانهيار حضارته الذاتي من منطلق فلسفي. فقد أدرك هذا الانهيار في ذات فلسفة العلم. ويمكن القول بأنّ ما وصل إليه هوسرل يشكّل أعظمَ مكاشفة فلسفية في العصر الحاضر أطبق على هذه المكاشفة الصمت والتعتيم ويسعى البعض للتكتّم عليها.

وأما هيدجر فكان ممن أدرك آخِر الزّمان في صميم التكنولوجيا والفلسفة فلم تلقَ آراءه - ولشديد الأسف - صدىً في الغرب ليتفاعل معها المسلمون وقام كلٌّ من محمّد إقبال وعلي شريعتي بنشرها وتفسيرها ولم تَنَل حظَّها أيضاً من قِبل المسلمين وتمّ تناسيها كما نُسيت آراء علي شريعتي وإنذاراته في مسقط رأسه ولربما تُلعن وتُستنكَر وتُطرد. فلم يدرك أحدٌ في إيران آخِرَ الزّمان بشكله الحديث كما أدركه شريعتي وقد أدّى جوهر رسالته إلى اندلاع الثورة ولكن سُرعان ما نسيت بعد انتصار الثورة. وكان هذا التناسي الثقافي والأيديولوجي أفتك نسيان أصاب المجتمعَ والنظام السياسي بعد انتصار الثورة وأسّس لجميع المأساة والانغلاق والمفاسد حتى قاد الثورة نحوَ المأزق تلو المأزق وليحوّلَ الثوار إلى مناوئين للثورة.

وأمّا اليوم، فقد انحصر القلب اليقظ والضمير والمعرفة والنباهة والنجاة من الأزمات وفلاكات العصر في فهم فلسفة آخِر الزّمان كآخِر موجة للتاريخ وفلسفته؛ ويعني بأنّه مِن المستحيل فهمَ معرفة الزّمان ومعرفة العالم والأنسنة إلّا من صميم فلسفة آخِر الزّمان فأيّ معرفة أُخرى دونها هي خداع ومصيدة.

ولو تنازلت الفلسفة مِن برجها العاجي وفتحت عينيها على واقع العصر الحديث، لرأت بوضوح نهايةَ التاريخ والحضارة والفلسفة الغربية والإنسان الغربي.

والإنسان اليوم وفي كافّة أنحاء العالم - مِن قلب أميركا إلى أوروبا والشرق الأدنى مروراً بقبائل أفريقيا وأستراليا ووصولاً إلى قرى عالم الثالث - يحمل روح الإنسان الغربي؛ يعني الإنسان التكنولوجي الآخِر الزّماني. إذن

فالإنسان الغربي لم يتواجد في الغرب فحسب - والإنسان الغربي اليوم أقل غربيةً مِن غير الغربي - بل أصبح غير الغربي أكثر اتصالاً بالتكنولوجيا.

وكانت جميع الحضارات والأقوام البشرية وعلى مرّ التاريخ، في حركة دؤوبة نحو التكنولوجيا وقد قادت أوروبا وأميركا هذه الحركة منذ قرون. ومن الأفضل شطب مصطلح التغرّب والإنسان الغربي مِن قاموسنا لنتحدّث عن الإنسان المصاب بالتكنولوجيا وغيرِ المصاب بها حيث يمكن دراسته والبحث عنه في جميع أرجاء العالم. ولعلّنا اليوم نجد المعادين للتكنولوجيا في الغرب والدول الصناعية المتطورة أكثر مما نجدهم في قرى أفريقيا وآسيا.

واليوم يجب أن نبحث عن معنى جديد وأفضل للإنسان والحضارة وعلينا أن نستعدَّ لإنشاء النواة الأولى المخترقة والمتفوقة على للتكنولوجيا في المجتمعات واتخاذها كنوافذ لإنقاذ الإنسان مِن جرح التكنولوجيا ولتكون بارقةَ أملٍ لبقاء الإنسان التكنولوجيّ وبديلاً لاستمرار حياة البشر على الكرة الأرضية. وأما المؤسسون لهذا المجتمع والحضارة، فهم من العارفين المستيقظين الذين أدركوا آخِر الزّمان وتوقّعوا انهيار حضارته.

والأدهى والأفتك من التكنولوجيا وتاليها الفاسد، هو الفكر التكنولوجي والمشاعر التكنولوجية؛ فيجب علاج الأفكار والمشاعر التكنولوجية، أي الأفكار الإلكترونية، والنووية، والكيماوية، وما يتعلق بالإنترنت. ولا يوجد شفاء إلّا بواسطة العرفان؛ عرفان آخِر الزّمان، ومعرفة زمانٍ عرفانية. وليس المقصود هنا الوجه الأدبي والشّعري والرّمزي للعرفان، بل العرفان الذي يتحلّى بالواقعية ويدور حول القرآن الكريم.

وللأسف، فإنّ الفلسفة والثقافة المهيمنة على نظامنا، تعاني مِن مرض تكنولوجي عضال حيث أصبحنا غربيين أكثر من الغربيين أنفسهم ودعى إلى هذا الوضع العديد من أمثال الدكتور عبد الكريم سروش حيث انتهى بهم المطاف، شيئاً فشيئاً، إلى إنكار أصول الدين حتى افتضحوا. فيجب الشفاء من هذا المرض والملنخويا الثقافية بالجهد الثقافي وليس بالاشتباك والمواجهة السياسية والعنف.

إنّ معرفة الزمان العرفانية تنذرنا بأن نتوقّف ونكبح جماح التكنولوجيا قبل أن تسوقنا نحو الهاوية.

الفصلُ السّابع

ما هو العمرُ؟

لم يكن الإنسانُ وحيداً لو لم يكن الجسد. فكلُّ ما يعاني منه البشر؛ مِن شقاءٍ وعناء مصدره الجسد؛ لأنّه لا يريد أن يكون وحيداً معه.

وجسد الإنسان هو القالب الوحيد المهموم والمغموم والمظلوم بين الكائنات والمرتهن في إطار الزّمن؛ لأنَّ لا مالكَ له. فمالكُه قد تركَه وذهب. وكلُّ مساعي الإنسان للتخلص من جسده، يَصُبُّ في خانة نسيان ذلك الجسد.

فالجسد في بحث دائم عمن يشاركه مِن قرينٍ وزوج وحضن ومُصاحب ورفيق؛ وهذا هو سرُّ الوحدة.

فكأنما الإنسان لا تكفيه نفسه. وكأنما كلّ جسد يحظى بنصف وجود، وهو نصفٌ لوجود آخَر يكمل بجانبه. إنّها ليست ضرورة مادية؛ أي وليست حاجة للجسد نفسه، بل هي حاجة لمن يعيشُ في قلب الإنسان وروحه. إنّه يبحث باستمرار عن زوج، وقرين، ورفيق، مع أنّه سيصلُ في النهاية مع كلِّ زوج، وقرينٍ، ورفيقٍ إلى الطريق المسدود نحو عزلته ووحدته؛ وبعد خوض جميع التجارب أي تجربة القرينين والرفيقين والزوجين سيدرك بأنّ العزلة لا تُطاق. فجسد كلّ إنسان آخِر قرينٍ له، وعلى المرء أن يعتاد على هذا الجسد ويطيقه.

والإنسان لا يطيق وحدتَه ولا رفيقه؛ فلا وجود لرفيق ومصاحب وقرين إطلاقاً. والإنسان بحاجة لمن يفهمه ويستوعبه، ويصدّقه ويلازمه في جميع الأحوال ويقوم بمعالجة قضاياه؛ فلم يوجد هكذا رفيق - على الإطلاق!

وقد سكن في قلب الإنسان من يملك الجسد ويطلب منه ما يعجز عنه. فهو يشكو جسدَه باستمرار؛ لأنّ جسده لا يشعر به ولا يمكنه أن يلازمَه أو أن يسلّيه.

والإنسان مصنوعٌ من قلب وذهن وجسد. فالجسد وعاءُ الذهن والقلب. وفي الذهن وجودٌ يقود باستقلالية، كما في القلب وجودٌ آخَر. فالقلب يطلب والذهن يخطّط والجسد ينفّذ.

ويخفق الجسد في تحقيق رغبات القلب والذهن على الأغلب. كما أنّ الكثير من التباين بين رغبات الذهن والقلب. والجسد الأعزل يتهاوى بين هذه التناقضات ويستهلك.

فلكلٍّ من القلب والذهن أهواءه وبرامجُه تنتهي إمّا بالتآلف وإما بالتّعارض في بعض الأحيان. فما يعاني منه الجسد من كمد وكرب يأتي جرّاءَ التعارض الحاصل بين القلب والذهن.

وأمّا الجسد فبالرغم من القواسم المشتركة التي تجمعه بالذهن والقلب، له كيانه المستقل. فله رغباته وقضاياه. يشعر بالتعب والأذى، ويرفض طاعة القلب والذهن أحياناً ويتصرف لنفسه.

وفي مسار الحياة يمشي الذهن والقلب والجسد كلٌّ في طريقه نحو العزلة والوحدة حدَّ الافتراق والخلاص وإعلان الاستقلال. وهنا يصاب الإنسان بالتثليث وهي أصعب ما يواجهه الإنسان من نكسة وجودية في العالم.

وقد صنف قدامى الحكماء الوجودَ إلى ثلاثة وجوه: الرّوح والنّفس والجسد. ولم يُقدمّوا تعريفاً واضحاً عن الروح والنّفس. ويبدو بأنّ الروح هي نطاق القلب بينما النَّفس أو أنانية الحرية والوعي، هي الذهن.

ووفقاً للمعارف الإسلامية فإنّ الرّوح باعتبارها مالكة القلب، تحلّقُ نحوَ الربّ بعد موت المرء، وأمّا الجسد فيُبلى في التراب وتبقى نفسُ الإنسان مع ذهنه وهي المسؤولة عن كلّ الحياة والوجود؛ فهي تجيب عن القلب وعن الجسد معاً. وهذا يعني بأنّ الإنسانَ - بوعيه وقدرته على الاختيار والتنفيذ - موجودٌ مسؤول وأنّ الإنسانية ليست إلّا هذا الوعي والذهنية والتي تخدمها الرّوح والجسد لفترةٍ ما، وليفارقانها بعد الموت.

فكأنما الذهن هو الذي لم يكتفِ ولم يقتنع بالقلب والجسد ويستعين بالآخَرين لاستمرار حياته بينما هو الوحيد في الحصيلة النهائية وعليه الوقوف ليُجيبَ نفسه بنفسه.

وقد يُقال بأنّ الجسدَ البشري، وفي القيامة الكبرى وبرفقه جميع الجوارح والأعضاء والحواسّ ومنها القلب، يشكو إلى الله ظلمَ مالكه أي النفس / الذهنية. وفي الواقع فإنّ الجسد والقلب شاهدا عيانٍ للذهن وحاميانه ولكن ما يحمله الإنسان معه من حياة الدنيا والمتاع الذي لا يضيع منه شيء، هو الخير والشر. فهما القاسم المشترك بين تجارب الجسد والقلب والذهن، وهو النفس الواحدة والخالدة التي تبقى بعد الموت وتستمرّ.

ولا يوجد إدراك ولا توجد تجربة خالصة وذهنية كاملة مستقلة عن القلب والجسد، كما أنّ القلب لا يشكّل موجوديةً مستقلة دون الجسد والذهن وكذلك الحال بالنسبة إلى الجسد.

فلا يمكن الفصل بين الجسد والذهن والقلب بأيّ شكل من الأشكال أو تحديدهم بشكل مستقل.

فعندما يحبُّ الإنسان شخصاً أو يكنّ له العداء، لم يتمكّن مِن الفصل بين الجسد والذّهن والقلب تُجاهَه. أجل، إنّ الإنسان يحبّ بقلبه ويرغب فيه، ويعرف بذهنه، ويحصل على المحبوب بجسده، لكن لا معنى لهذا الحبّ دون معرفة ذهنية ولمس غريزيّ وجسديّ ناتج عن تجربة. ومعرفة الإنسان لأيّ كائن وأيّ شيء ليست بمنأى عن الإحساس والرغبة القلبية والملامسة الغريزية والحسّية.

ولم تتمكن الفلسفة والعلم - ومنذ آلاف السنين - مِن تحديد المهام وإدراك الحدود بين الذهن والقلب والجسد والغرائز والذكاء والحواسّ وأعضاء الإنسان وجوارحه. وكأنما لكلّ عضو أو حاسة من الجسد قلب وذهن خاص بها ولكلِّ عاطفة في قلب ذهن ولامسة يختصّ بها. فلا حدود بين المادة ومعنى الوجود الإنساني. فهناك من قدّم فرضيات ونظريات نسبية وموضوعية ووضعية عن معرفة الإنسان مروراً بأرسطا طاليس إلى كانط وهيجل وجيمز وفرويد، لكنها كُتبَ لها البطلان مراراً واستمراراً.

فهذا هو الحال معرفة الإنسان لنفسه إذ يعتريه دوماً النقص فلا قيمة له، فكيف بمعرفة البشر عن العالم؟ ومع هذا، فإنّ الإنسان يدّعي أو يشعر بأنّه أكثر معرفة بسائر الكائنات مِن نفسها. إنّه ادعاء ناتج عن حماقة. فكيف يعرف الإنسان الآخَرين أفضل مِن أنفسهم؟

ولقد اجتازت التكنولوجيا والعلوم البشرية العزم البشريّ وفرّت من مقصّ رقابته وإشرافه، لتفرض هيمنتها على البشر بطريقة فتّاكة، فهذه العلوم ليست أداةً بيده، بل إنّما هي وعكة وكارثة ومصاب كالإعصار والتغييرات المُناخية.

وتشكّل هيمنة التكنولوجيا أعظمَ مصيبة على الإنسان الحديث. فجميع العلوم على نفس الوتيرة من القهر والغلبة. حيث أصبح الإنسان ألعوبة بأيديها. فمعرفة الإنسان لنفسه معدومة وجهازه المعرفي معطّل ومختلّ. فيُنتج مِن مصنعِ يُدعى الإنسان مختلفَ الأشياء كالعلوم والفنون لا يمكن مِن خلال عملها وهيكليتها وبِنيتها الحصول على أيّ عِلم يقيني.

ولقد كان قدامى الحكماء من أمثال لاوتزه وسقراط وبوذا على عِلم بأهمية معرفة الذات واجمعوا بخطورة المساعي البشرية الأخرى ومعارفه الشّتى دون الوقوف على معرفة الذات. بينما تجاهل فلاسفة عصرنا الراهن هذا الكائن الحيّ ولم يتناولوه - ولو باعتباره موضوعاً عِلمياً هاماً جديراً بالبحث والدراسة واعتباره - وإن كانَ بصفته حيواناً، بل عَدَّوه أداة أو ماكنة تُدرس على أساس القطعات وليس كياناً واحداً وموجوداً ذاتَ روح واحدة.

ولم تتغير وتتطور معرفة الإنسان عن روحه ونفسه ومشاعره خلال آلاف السنين فحسب، بل وأخفق في الحصول على علاج شافٍ لأمراضه الجسدية مما يدلّ على جهل البشر بإنسانيته.

فجسمُ الإنسان أكثر الأجسام عناءً وسُقماً في العالم ونفسه أكثر النفوس اختلاجاً وروحه أكثر الأوراح ضجراً واضطراباً. وقد تفاقم هذا الوضع طوال مسار التاريخ. وهذا يعني بأنّ الإنسان قد سلك مساراً أكثر ضلالة وجهلاً نحو نفسه حتى أصبح اليوم أشقى وأخطر موجود على مرّ التاريخ، لأنّ كيانه في خطر مطرد وأضراره وعذابه ودائرة أخطاره في تزايد وحياته الحيوانية أشد دماراً مِن الحيوانات الأخرى. فهو يستغل كلّ العالم بكائناته ليحسّنَ مِن وضعه ولكن دون جدوى ونحو الأسوأ وعلى حافة الهاوية؛ حتّى فضّل الانتحار والتخدير على الحياة والوجود. إنّه مأزق الإنسان مع كيانه؛ ويعني بأنّه - وطوال التاريخ - لم ينحُ نحو تحسين صحته ورخاءه في الاتجاه الصحيح في العالم، بل جميع جهوده باءت بالفشل وارتدّت عليه. وبعبارة أخرى، سار الإنسان في جميع تحركاته وجوهر تفكيره ومشاعره، من خطأ إلى خطأ. فهو في خسران متزايد ويجب عليه التوقّف وهذا أقلّ ما يمكن فعله - بحكمِ العقل. ولكنّ الإنسان انفصم عن عقله وعزمه وصار دمية تحرّكها التكنولوجيا، فهو عبدٌ لدى خصمه، عبدٌ يَدّعي السيادةَ على خصمه؛ إنّها أكبر أكذوبة الإنسان على نفسه. إنّ الإنسان يعيش عبودية التكنولوجيا وعليه إنهاء هذه العبودية وإنقاذ نفسه.

والإنسان روح شبهُ إلهية وساحرة سخّر اللهُ له كلّ عناصر الطبيعة لكنّه عاجز عن استغلال هذا التسخير؛ لأنّه غريب عن نفسه ولا يدرك حاجاته، كطفل يعبث بغذاءه فيدخله مرة في أنفه ومرة في أذنه ويأكل من غائطه. هكذا هو حال الإنسان في التاريخ وما يسمّيه بالتكنولوجيا جاءَ حصيلة هذا الاستغلال الخاطئ للعالم.

والتكنولوجيا أعظم وأوضح حجة للدلالة على غباء الإنسان وجنونه على نفسه وعالمه. مشفىً للأمراض العقلية باسم الإنسان المتحضّر التكنولوجي المتمدّن تسخرُ منه الملائكة والجنّ والشياطين ويخيف الجميع في نفس الآن. إنّه توقّع إبليس عن خلق الإنسان والذي أغواه نحو هاوية التكنولوجيا؛ إلّا عشّاق وجه الله. فالشّيطان أغوى آدم وحواء وأخرجهم من الجنة ليهديهم التكنولوجيا في جحيم الأرض، وليصنعا منها جنّة، لكنّها أمست جحيماً.

والإنسان الحديث أصيب بهذا الجحيم فقط لتلبية أدنى رغباته الحيوانية وإرضاءها - لا غير - كالأكل والنوم واللعب والتناسل، ومع هذا، فإنّه فشل في بلوغ هذه الرغبات ليعذَّب بعد ذلك وليلجأ إلى المخدرات وعقاقير الهلوسة والنشوة وإلى الانتحار - كطُرُق للخلاص. فالإنسان الحديث نادم مِن حضوره في هذا العالم وهذا الندم فوزٌ لإبليس ودليل على آخِر الزّمان لتاريخ البشر.

والإنسان ليس عينَ جسده ولا غرائزه ولا حواسّه ولا ذكاءه ولا جوارحه، كما أنّه ليس عين قلبه ومشاعره وأحاسيسه وعشقه وكرهه ولا ذهنه وأفكاره ومعتقداته وآماله. فلو كان كذلك لانتهى بموته؛ لأنّ جميع هذه الصفات تنبع من جسده وتعود إليه والقلب والذهن يعملان لخدمة تنظيم حاجات الجسد.

وتثبت الأحلام لدى النوم بأنّ للإنسان كياناً يتعدّى الجسد والذهن والقلب. إنّ هذه العناصر الثلاث تقوّم حياة الإنسان وتعمل كمرساة لحياته في العالم الترابي.

فهل هناك تصوّر عن الحياة والوجود دون هذه العناصر الثلاث ومنتجاتها؟ فإذا كانت الإجابة بالنفي فإنّنا معدومون أساساً وبموتنا ندخل دهاليز العدم المظلمة لنستأنف تاريخاً جديداً؛ وهو تاريخ حياة ووجود أثيري لا يحتاج إلى الجسد والقلب والفكر.

هناك شيء واحد فوقَ هذا الجسد والقلب والذهن وهو الشعور المحض بالوجود وهذا هو جوهر الإنسان الحقيقي الذي يبقى. فكلّما كان هذا الشعور قوياً ونقياً ويقينياً وعالمياً، كلّما تمكنا من اتخاذه زاداً للمعاد وثماراً نحصدها من مزرعة الدنيا لصالح دار الآخرة.

فُخلِق الإنسان ليستغلّ أثناء فترة عمره مجموعةً من الإمكانيات التي أتاحها الجسد والقلب والذهن ليصنعَ نفسه ويمنحها الوجود. ومحور مثلّث الجسد والقلب والذهن يرتكز على نقطة الوجود، والشعور بالوجود يكون

بمستوى الاقتراب من هذه النقطة؛ فكلّما ازددتَ قرباً ازددتَ حياة. إنّ هذه النقطة حصيلةُ وحدة هذه العناصر الثلاث في مَصنع خِلقة الإنسان في العالم الترابي.

إنّ الولادة لا تعني الخلق والوجود، بل تشكّل فرصة ومهلة وإمكانا للخلق والوجود.

وإنّ الله سبحانه وتعالى وهبنا طينته وروحه وعِلمه كي نصنع أنفسنا باختيارنا حسب تصوّرنا. إنّه هيكلُنا بجميع ميزاته الجسمية والرّوحية والعرفانية. وهذا النموذج تحت تصرّفنا حتّى يوافينا الأجل لنصنع منه حياتنا السرمدية في ورشة الخلقة الأرضية. إذن فوجودنا الأرضي هو نموذج من خلقتنا التي هي خلقة الله الأزلية لنستنسخ منها خلقتنا الجديدة في ظلّ ربوبيته.

ومن يخشى الموتَ والفناء لم يُخلق بعدُ؛ أي لم يخلق نفسه. وإنّ مَن يخشى الفقر والوحدة والبؤس والهزيمة والمرض والموت، لم يَخلق نفسه بعدُ، بل قد تلاعب بطينته فقط واتخذ هذا النموذج الرباني دمية ليس إلّا وكان من أهل اللعب واللهو.

فالعمر الذي أوتيناه، يُعدَّ مجالاً ومهلة للخلقة. وتاريخ البشر ما هو إلّا ساحة لعمره وذلک لإنجاز هذا الخلق والذي أوشك بالانتهاء حيث علاماته التي تلوح في آخِر الزّمان وتنذر بنهايته.

ويجب على الإنسان أن يستخدم الجسد والحواس والذكاء والغرائز والمشاعر والحبّ والكراهية والفكر لغرض خلق الإنسان ليصبح كائناً في ساحة خلافة الله وخليلاً له في العالم. ولكنّ الإنسانَ يعبث بهذه الإمكانيات حتى حلول أجله؛ يعبثُ بجسده وذهنه وقلبه ويتلاعب بدينه وإيمانه وعِلمه لغرض صناعة دمية باسم التكنولوجيا واللهو بها.

فالإنسان بدلاً من صُنعه لنفسه وتكوينه لذاته، يصنع السيارات والصواريخ والقنابل لغرض اللعب بها للسيطرة والهيمنة. وهذا ما علّمه إياه إبليس ليلهيه عن مجال خلقه ويبتليه بمئات الأسقام المُميتة. وفي هذا المسار الخاطئ خسر الإنسان نموذج الخلق القديم وفقد جميع مقومات الخلق السليمة ليتسنَ له القيام بالصنع مِن جديد، كما أوشك عمره على النهاية ليقضي ما تبقّى مِن عمره بما صنع من دُمى يقسّم بينها النقاط. وسيدفن عمّا قريب هذا

النموذج المحطّم والمعذّب والمجنون تحت الثرى لتُروى عنه القصص في تاريخ الكون كإنسان كان من المفروض أن يخلق ولكن أخفق.

ويدفن الإنسان في آخِر الزّمان كفرضية وطموح رجعي تحت مليارات الأطنان من أنقاض الحديد والإسمنت والنفط والقير والأسفلت. وفرض الإنسان على نفسه هذا المصير لأنّه رفض أن يكون لمفرده ولذاته؛ ولذا أمسى حديداً وإسمنتاً، ومَن هُم أشدّ قسوة مِن الحجارة - كما في القرآن. وقُبيل هذا الانهيار التامّ للأرض والتاريخ بخطوة أو بيوم، يأتي المُنقِذ الموعود ليحققَ إرادة الله في العالم ويمحقَ إبليس. إنّه هو نفسُ الإنسان الصانع لنفسه والخالق لها. فهو الميزان ونموذج الإنسان. فمن عرفه وصدّقه، يستعيد قدرة خلق ذاته فيما تبقّى مِن آخِر أنفاسِ تاريخ البشر. إنّه أكمل إنسان خَلق نفسه بيده كالرّب؛ إنسانٌ شبهُ إلهي.

الفصلُ الثّامن

زمنُ الوحدة

إنّ آخِرَ الزّمان ساحةٌ لوحدة الإنسان؛ مساحةٌ لا يجد فيها الإنسان ملجأً وملاذاً مّن أي شيء وبشر، كما لا يستقرّ شيء وأَحدٌ في فؤاده أبداً. فكلٌّ يعاني من نفسه مبتلى بها. ويمسي المرء وحيداً لا يكون سوى جسده.

فالكلّ في آخِرِ الزّمان عليه أنَ يكون نفسه والأكثر فراراً من أنفسهم هم الأكثر عناء وشقاء وجنوناً وإجراماً.

ففي آخِرِ الزّمان تحصل الجريمة إثرَ فِرار الناس من أجساهم ووحدتهم ومن وقع تحت وطأة الوحدة مجبراً عليها سيلجأ إمّا إلى الانتحار وإمّا نحو أكثر الخيارات قانونية وهي المخدرات وعقاقير الهلوسة والمهدئات.

والإدمان نتيجة هروب الإنسان من وحدة آخِرِ الزّمان وعزلته. وكلّما اشتدّت واستفحلت هذه الوحدة، كلّما تطوّرت المخدّرات تأثيراً وفتكاً لتدخل الإنسان المتهالك نحو عوالم أكثر نسياناً للحاضر وأشد هروباً من الذات؛ لأنّ الكلّ يرفض أن يكونَ نفسه.

أمّا الآمِن مِن هذا الفزع المتمثّل في الانتحار والإدمان والإجرام والجنون، هو مَن توجّه إلى الله ولاذ به وعثر على وجه الله في قرارة نفسه أو لدى إنسان عارف.

وكمال المعرفة في السير والسلوك العرفاني، هو الوصول إلى مقام التفريد والتجريد والتوحيد وهو مقام الوحدة والوصول إلى الذات. وهذا مما فرضه علينا آخِر زمان التاريخ حيث يمكنُ تسميتُه بالنّعمة المقنَّعة التي أوصلتنا إلى هذه المحطّة.

وفي الواقع، فقد بلغ البشر تاريخياً الوادي السابع من أودية السير والسلوك نحو الله. فإن أدّى حقَّه فهو من المفلحين الذين قطعوا مدنَ العشق السّبع والعرفان بليلة واحدة، وإن لم يؤدِّ فقط أسقط نفسه في هاوية العدم بملئ رغبته.

وإنسان آخِرِ الزّمان هو إنسان عارف قسراً، ولذا سيكون مذهب العرفان ومعرفة النفس هو مذهب آخِرِ الزّمان الموحّد والعامّ. وكما كان العرفان غاية كلّ المذاهب الإلهية فإنّه سيكون في آخِرِ الزّمان دينَ الفلاح والحقّ

الوحيد في العالم هو معرفة النفس والسير والسلوك العرفاني، أمّا سائر المذاهب فتصبح من المستحيل ولا تؤدّي إلّا إلى النفاق؛ ذلك لأنّ آخِر الزّمان عشية القيامة وديباجة تجلي الرّب. فاقتربت غاية دين الله لكلّ البشر في آخِر الزّمان؛ لأنّ جميع الشرائع السماوية هي دعوة إلى الله وهذا هو الرّب قد ظهر الآن. والإنسان يكفيه فهم المرحلة وامتلاك إرادة اللقاء لبلوغ الفلاح.

وفي آخِر الزّمان لا تعطّل الأحكام ومراحل الشريعة فحسب بل تترك مراحل الطريقة أيضاً؛ ذلك لأنّ الغاية من الطريقة قد حصلت والبشر بين يدي الله ويكفي الإنسان أن يعرف الزمان ويعلم به، ويعي هذا الحقَّ ويؤمن به، كي يحظى بالفلاح. إذن، فمعرفةُ آخِر الزّمان في عهدنا الراهن تشكّل طريق الخلاص الوحيد وسبيل الفلاح الفريد وهذا ما سعينا لإبلاغه من خلال ما كتبناه مِن أعمال لحدِّ الآن.

ويمكننا مِن خلال التّعرف على آخِر الزّمان، تلقّي روح الشريعة ورسالتها كاملة إلى جانب مراحل الطريقة والوصول إلى ما سعت إليه البشرية منذ آلاف السنين بلقاء واحد. إنّها مِن نِعَم آخِر الزّمان؛ حيث يمكن بلوغ مرحلة لقاء الله في درجات التجلي عبرَ مرآةِ وجود عارف واصل ودون سلوك طُرق المراحل وأحكام الشريعة والطريقة. وهذا هو الفلاح الأبديّ وكمال الدين والعرفان دون سلوك سبيل المذهب التاريخي.

ويستلزم هذا الأمر استيعاب الوحدة وتصديقها، فلن ينال الإنسانُ لقاء الله دون العودة إلى ذاته.

ولن ينالَ الإنسانُ لقاءَ الله دون أن يكفَّ عن التاريخ والحضارة والعُرف والشرع والقانون والديموقراطية والليبرالية وتكنولوجيا الشرق والغرب والعنصر والموروث الأُسري، يكفّ عنها جميعاً بيده وقلبه والعودة إلى ذاته.

إنّ آخِر الزّمان - شئنا أم أبينا - هو نهاية التاريخ وانهيار كلّ ما وصل إلينا من التاريخ ومن الزمنية (الإبليسية) ومنها المذاهب التاريخية المملوءة بالشّرك والنّفاق. إنّه مشهد لزيف جميع القيم المتمخضة عن تاريخ الحضارة البشرية. وكفى بالمرء أن يخلّص نفسَه مِن شرور كلِّ هذا الزيف والهزل فوراً ليعود إلى ذاته ويلاقي ربَّه فلا ملاذ إلّا به. ونقولها بعبارة واحدة واضحة: لا يوجد خلاص للإنسان في آخِر الزمان إلّا في العزوف عمّا هو موروث. إنّه سبيل التخلّص من العدمية.

فالعدمية هذه، هي التي تجرُّ الإنسان نحو القضاء على نفسه للتخلّص منها. والتخلّص منها يعني التخلّص من شرور الزيف والقِيم والمفاهيم الجوفاء المؤدّية إلى فلاكة الإنسان والجاثمة على عقله وقلبه وروحه. ويجبُ أن يكون هذا التخلّص بِنية إلهية وعرفانية، وإلّا فهذه القِيم باطلة لا محالة في أعمال البشر ولذلك تجدُ أكثر الشعوب القديمة والأشخاص الأكبر سنّاً هم أكثر ابتلاءً بالنفاق والهلاك. ومن أجل ذلك نرى مجتمعنا الراهن يتصدّر قائمة الكثير من المفاسد في العالم وذلك في ظلّ نظامٍ مِن أشدّ الأنظمة صرامة في تطبيق الشريعة والعرف في العالم وهذا مِن ميزات آخِر الزّمان حيث أوصل الأنظمة التقليدية - بما تحملها مِن قِيَم - إلى طريق مسدود في نهاية المطاف. وآخِر الزّمان هو ساحة لظهور شريعة نابعة مِن الذات دون التاريخ والموروث والمجتمع والقانون. إنّه ساحة لمواجهة الكفر المعلن والممحّض مع الدين النقيّ والربانيّ. إنّه ساحة لانهيار الشّرك والنّفاق.

والعدمية الناتجة عن النفاق أشد فتكاً من العدمية الكافرة.

وهذه العدمية العالمية من نتاج انهيار جميع القيم التاريخية التي تكوّنت في قاعِ الزّمان.

وآخِر الزّمان يعني أيضاً موت الزّمنية وهي الإبليسية بذاتها.

إنّه زمن الوحدة والوقوف وجها لوجه أمام الله. فمن فرَّ مِن الوحدة فقد فرَّ مِن ربّه. فلا كفر اليوم سوى هذا؛ لأنّ الاضطرابات البشرية كافة قد نَتَجت عن هذا الفِرار وذلك الهروب.

وآخِر الزّمان هو نهاية العشق البشري وبداية العشق الربّاني. فالعشق الموروث والعشق المبني على العنصر والعشقُ الأُسري لا يمثّل سوى نطاق لظهور أشدّ أنواع العذاب والفساد والاضطراب.

إنّ الوحدة مذهب الفلاح في آخِر الزّمان ومِن الصّعب أو لعلّه من المستحيل بلوغ هذه المرتبة دون الاستعانة والتّمسك بمن بلغَها.

فتوحّدوا كي تُفلحوا! فكما يمثّل الإمام الموعود ومنقِذ آخِر الزّمان أسوة فريدة للوحدة عبرَ التاريخ، فإنّ معرفة الإمام لا تتمُّ إلّا عبرَ الوحدة ومعرفتها، فهي طليعة معرفة الله؛ الوحيد والمتّفرد بالوجود.

وما حصل من كُفر وشِرك ونِفاق، فهو مِن سعي الإنسان للفرار من الوحدة؛ وهارب كهذا يمارس الجريمة مرتدياً ثوبَ العشق.

ومَن رفضَ الوحدة في آخِر الزّمان، فمصيره العدم والجنون والجريمة والإدمان والانتحار ليهلك مَن هلك مِن جيل الكفر وليبقَ مَن بقى مِن رعيل الوحيدين مع إمامه ومع ربّه.

والتوحّد يعني فقدان التاريخ واعتزاله؛ يعني التّحرير من الزمنية وبلوغ حاضر الوجود وراهنَه والنّفس والذّات وهي مهبط الرّب.

- «كُن وحيداً لتلقاني» (كلامُ الله في حديثٌ قُدسي)

والعزلة والوحدة هي نفس الوجود ولا يلقى الإنسان جمالَ ربّه إلّا إذا "كان". ودين الله كلّه هو خارطة طريق الوحدة والعودة التدريجية نحو الذات. ومما لاشكّ فيه هو أنّ الوحدة المعنيّة هنا لا تعني الانكفاء المصطلح عليه، وإنّما هي حدَثٌ روحاني ينتهي بلقاءِ الله.

الفصلُ التّاسع

منطقُ آخِرِ الزّمان

إنّ آخِرِ الزّمان عرصةٌ لإلغاء المفاهيم، والقِيم، والنماذج الأخلاقية والمدنيّة. ومِن صميم هذا الزوال القِيمي تنهض العدمية الثقافية ويفشل المنطق وتظهر الفاشية.

فلو كانت ألمانيا أوّلَ حاضنة رسمية للفاشية في العالم، فقد حدث هذا بسبب انتشار الفلسفة العدمية؛ فالألمان قاموا بتقديس العدمية الثقافية.

إنّ أكبر أخطار العدمية، ظهور اللاشيئية كفلسفة سياسية وأيديولوجية اجتماعية - كما كان حال النازية بالتّحديد.

وكلُّ إنسان في آخِرِ الزّمان عدمي بامتياز. ولا ينبع مِن هذه العدمية إلّا العرفان أو الفاشية والفوضوية والإرهاب.

فالعدمية الناتجة عن السير والسلوك العرفاني، ترتوي جذورها من الحكمة والعرفان القديم والتي تنتهي بالأخلاق الفاضلة والعشق الإلهي.

وأما العدمية الشعبوية المبتذلة - وهي الثقافة المهيمنة على العالم الحديث - فلا تُنتج سوى الدّمار.

وتُعَدُّ الأخلاق والقيم والمنطق والعقل والمفاهيم آلياتٍ لبلوغ الغاية والهدف، ولكن عندما تتحوّل هذه الغاية والطموحات عند التطبيق وتنقلب رأساً على عَقِب لتتبدّل إلى أداة لإلغاء المبادئ المؤسِسة لها، فحينئذ سيتلاشى المنطق والعقل والأخلاق مِن الداخل ويتجرّد مِن جوهره ويتحوّل إلى وسيلة لازدراء الذات والسُّخرية منها وإلغاء الآخرين.

إنّ الإقبال المتزايد نحو الكوميديا والسخرية والتهريج والتنكيت في الثقافة والفنّ والأدب والحوارت اليومية أكبر دلالة على العدمية الأخلاقية والمنطقية. إنّها تُحوِّل السخرية مِن الذات إلى هوية عالمية.

وهناك هويتان تحدث تحت هيمنة العدمية: ١. التمثيل؛ و٢. الاغتيال. وتتّحد هاتان الهويتان وتؤطّران فنيّاً - وخاصّة في السينما - ليتحوّل الفن السّابع في آخِرِ الزّمان إلى فنِّ الرُّعب والسُّخرية.

والعنف الجنوني إلى جانب التهريج والسخرية وجهان لعملة هوية الإنسان الأخلاقية والمنطقية الواحدة في آخِر الزّمان وفي البازار المربح الناتج عن ظهور هذه العدمية المبتذلة.

وعندما تفرغ كلُّ القِيم والمعارف والمنطق مِن معانيها، سيظهر شعورٌ وطموح جامح يمكن تسميته السلطة مِن أجل للسلطة المحضة؛ وهذا لا يعني شيئاً سوى الفاشية.

ولا سبيلَ لمبدأ إرادة السلطة مِن للسلطة إلّا الارتكاز على العنصرية - كمبدأ لتبرير شرعنته. ونشاهد اليوم ظهور موجة جديدة من التيارات القومية المتشدّدة وعبادة المثيولوجيات القومية. ولم يسلم عِلم الآثار مِن هذه الظاهرة حيث تحوّل من مجرّد عِلم يخدم التّاريخ إلى عِلم مقدّس.

ويعني ظهور الأنانية العدمية ظهور الكُفر البوّاح، حيث لا يعتبر الشخص لنفسه أحقية أرفع من الوطنية: أنا على حق لأنّني موجود! والأنانية هنا هي الأحقية ومَن كانَ أكثر أنانية فهو أكثر حقاً. وإرادة السلطة الأداة الوحيدة لشرعنة هذه الأحقية؛ أداة لا تعرف إلّا القوّة، وفي هذه الحالة تتحوّل العدمية إلى إرهاب: أنا على حقّ، لأني قويّ وأتمكّن من إرعاب الآخَرين.

ويؤدلَج الإرهاب في آخِر الزّمان حيث لم يَعُد حتّى بحاجة إلى التبرير الفلسفي والديني. الإرهاب الحكومي وغير الحكومي وجهان للإرهاب في سيادة منطق القوّة والسلطة.

وأمّا مَن بقي مِن الأشخاص والفئات القليلة التي لم تؤطَّر وتهجن بالعدمية فلن تجد سبيلاً لبقاءها ولا طريقاً للمحافظة على حقوقها غير اللجوء إلى الإرهاب الانتحاري والاستشهادي وهو الشّكل الثّالث للإرهاب المقدّس.

ويجب في وقتنا الراهن - وللحؤول دون الوقوع في فخ الموجات الإرهابية وعدم الانضمام المرغم إلى صفوف الإرهابيين - الابتعاد عن الأمصار الكِبار والجلاء نحو القُرى والمرتفعات والمناطق النائية وإنشاء حياة مستقلة خارجَ نِطاق تغطية الحياة العدمية والإرهابية، وإلّا - ففي غير هذه الحالة - لا يستبعد بأن يكون الخيار الأمثل للدّفاع عن كيان التفس هو القيام بالإرهاب الانتحاري.

والعودة إلى الحياة البدوية البسيطة في عصر التكنولوجيا هو السّبيل الوحيد للنجاة من الانهيار العدمي - الإرهابي.

وعلينا أن ندرك بأنّ العدمية هي المولود الفكري والأخلاقي والروحي البارّ للتكنولوجيا.

أمّا الانعدام فهو حصيلة وقوع الإنسان كألعوبة ودُمية بين مخالب التكنولوجيا. فالعدمية واللعب وجهان لعُملة واحدة؛ وكما نشاهد اليوم فإنّ أكثر النشاطات البشرية سلامةً وجدية - حسبَ الظاهر - تتجلّى في الرياضة وهي مذهب أصالة اللعب - العدم. إنّ الرياضة النّشاط الوحيد المسالِم وغير الإرهابي لبشر آخِر الزّمان حيث هي الأخرى تسير وبخطوات متسارعة نحو التوحّش والإرعاب حين نشاهد ما يحدث في الصالات والملاعب الرياضية وأوّل الغيث قطرة.

واللعب ذاتاً هو القيام بعمل دونَ معنى؛ ولكنّه تبدّل اليوم إلى معنى: معنى دون معنى! وهو ظهور مذهب أصالة الإنكارية والعدمية بالذات.

فالتكنولوجيا بذاتها مصنعٌ لإنتاج أخطر الألعاب وأبشع الدُمى. فكلُّ اختراع واكتشاف يظهر بشَكل لعب ثم يجدُ استخداماته في سوق ألعاب البشر.

وقد أذعن جميعُ العلماء بأنّ كلَّ اكتشاف أمرٌ (حادث)؛ أي إنها لا تتأتّي مِن سلسلة أبحاث وعلل علمية. وهذا رمزُ ألعوبية البشر بيد التكنولوجيا. فالتكنولوجيا لا تأتي نتاجاً لحاجات البشر حتّى، بل تتحوّل إلى حاجة قبل ظهورها لتفرض نفسها على البشر. إنّ هذا سبب انعدامية البشر وأَسرِه تحت هيمنة التكنولوجيا. وللتغطية على هذه الروح المنهزمة وإرادتها المكتسحة، يُقبِل الإنسان على السلطة وإرادة الإرادة حسب رأي هيدجر - وهي أساس العدمية والفاشية وتحدث مِن صميم علاقة الإنسان مع التكنولوجيا.

وكما يرغب الإرهابيون أن يظهروا على شَكلِ أبطال وفتوّات، يدّعي منعدمو الإرادة احتكارَهم للإرادة والقوة أكثر فأكثر، وهذا يمهّد لظهور الفاشية والإرهاب النابع من انعدامية الإرادة البشرية.

إنّ الإرادة الجوفاء الواقعة تحت وطأة التكنولوجيا، تشكّل المبدأ النفسي لظهور العدمية والإرهاب وهي في الحقيقة إرادة للإرادة في قمة اللاإرادة.

وإن كانت التكنولوجيا تبلوراً لنفس البشر الأمّارة، لكنها في نفس الوقت تتسبب في القضاء عليها لدى البشر. وهذا بيان آخَر مِن العدمية والتفاهة المنبعثة من علاقة الإنسان بالتكنولوجيا: إرادة اللاإرادة!

وإن لم يؤدِّ انفعال الإرادة البشرية وسخافتها تحت هيمنة التكنولوجيا إلى يقظة الإنسان وفلاحه وعرفان النفس، فمِن دون شكّ سينتهي إلى الدمار والإرهاب.

والإرهاب الانتحاري في العالم الإسلامي يشكّل آخِرَ خندق للدفاع عن الإرادة العقَدَية والدينية لإنقاذها من التسخيف، ولكن هذا الإرهاب في نفس الوقت يمثّل رمزاً لظهور العدمية ولا يمكن أن يتحوّل إلى هوية دينية، وأمامه - في نهاية المطاف - سبيلان لا ثالثَ لهما: إمّا الاستسلام للعدمية، وإمّا الانطواء على الذات. والانقسام الحاصل بين الفصائل المناضلة في فلسطين يعبّر عن هذا الحدث المشؤوم حيث استقطب النضالَ حول محورين: محور الاستسلام ومحور الانتحار. كما وضع المناضلين في حالة المواجهة، مما حصل بين حركتَي فتح وحماس.

وتشكّل الصهيونية اليوم، أكبر رمز لظهور العدمية الإرهابية المستندة على التكنولوجيا المتطوّرة. فقد تعاضدت العدمية مع الإرهاب والتكنولوجيا وتوسّلت بمثيولوجيات اليهود لتقديس نفسها، مما يظهر الرّوح العنصرية لدى بني إسرائيل. إنّه آخِر معقلٍ وملاذ للعدمية المؤدلَجة. فهناك شرخ وانقسام عظيمان شقّا صفوف بني إسرائيل وقوم اليهود في كلِّ أرجاء العالم وفي إسرائيل. وهناك عنصرية أخرى تواجِه ذلك وتأتي من جانب العنصرية العربية وهي عدمية أخرى.

إنّ هذا المفهوم ليس فلسفياً ولا علمياً ولا يشابه أيَّ مذهب تاريخي آخَر. إنّه مفهوم الجمال وجمال مفهوم الإنسان؛ كيف كان عليه أن يكون، ولكن لم يكُن.

إنّ العدمية هي الغاية التاريخية للفكر والمفاهيم والقِيم الجدلية. إنّه موتُ جدلية الفكر والمنطق وجميع المفاهيم والقيم القائمة على مبدئَيْ الخير والشّر. إذن، فآخِر الزّمان يعني نهاية تاريخ الخير والشّر، وبداية ظهور التّوحيد وتوحيد المعاني والحقائق التي تفوق الجدلية.

وعندما يصدر أشدّ الشّر مِن باطن أشدّ الخير، فهو يعني ظهور اتفاقهما في باطن الحداثة والتكنولوجيا.

وبما أنّ الحداثة هي المعنى المبطّن للتكنولوجيا، توثّن المفاهيم ورغبات النّفس الأمّارة – والموضات هي الأوثان. وتسبّبت الحداثة القائمة على التكنولوجيا في ظهور وثنية تامّة ومعولَمة تسير نحو الانهيار.

وهنا يتكرّر مشهد ما قام به إبراهيم (عليه السّلام) حين انقضّ على الأصنام؛ فالصنمُ الأكبر والأجمل يحطِّم الأصنام الأخرى؛ إنّه تحطيم الخير على يد الشرّ.

فالتكنولوجيا - باعتبارها مظهر كلِّ الخير - تتحوَّل إلى ورشة إنتاج الشّر وهذا هو معنى العدمية التكنولوجية.

وأمّا المنقذ الموعود فإنّه إبراهيم آخِر الزّمان والذي يحطّم صنم التكنولوجيا. وما صدر مِن أعمالنا حتّى الآن - مِن كُتب ومحاضرات - هو تمهيدات ثقافية لتنكيس الأصنام؛ أي هذا الحدث التاريخي والعالمي العظيم.

وبزغت النّار مِن باطن هذه الجثّة التكنولوجية. وهذا هو سبب ظهور العدمية.

والعدمية آخِر فلسفة تاريخ الحضارة التكنولوجية وأكثرها تطوراً.

ويجرف هذا الإعصار العدمي جميعَ العالم والعالمين ما عدى عشّاق الله والخُلّص من أتقياءه الذين فرّوا مِن إقليم الحضارة التكنولوجية ومجاله ليصبحوا رعاة إنقاذ ما تبقّى من البشر والمؤسسين لحضارة مابعد التكنولوجيا. ومنقذ آخِر الزّمان - كما يقول هيدجر - هو راع يقود بعصاه البشَر نحو النّجاة. إنّها غلبة هابيل على قابيل في نهاية تاريخ هيمنة القابيليين.

إنّه موسى والذي يحطّم بعصاه عرش حضارة الفراعنة. إنّه عيسى والذي يُحيي ضحايا التكنولوجيا وهو راكب على حماره. إنّه محمّد والذي يُظهر جمالَ ربّه للعالمين. إنّ هذا الجمال يصدر من المنقِذ الموعود. إنّه جمال الموعود. إنّ هذا هو جمال الحقّ وعصمته وعشقه وقُدسيته الذي ينقذ البشرية.

وعند نهاية تاريخ المنطق والعلم والتكنولوجيا والعشق المهلِك للبشر، يظهر عشق الله للإنسان ليحيي الإنسانية مِن جديد.

إنّه عشق رجال الله الإلهي حيث ينقذ البشر من انهيار العدمية؛ فالعشقُ هو المعنى الأخير والمنطق الأخير.

إنّه - كما وصفه عليٌّ (عليه السّلام): «عند انتهاء الحساب في القيامة، سيكون العشق آخِر ما يقوم عليه الميزان».

والذي يحبّ البشر دون قيد وبلا شرط عند نهاية التاريخ هو المنقذ. إنّه آخر شخص بوسعه أن يحبّ ويستطيع أن يستمرّ بحبّه للإنسان في فترة لم يحبّ أحدٌ أحداً – لا سيمّا نفسَه.

وإنّ المحبة هي نورُ النّجاة.

الفصلُ العَاشر

آخِرُ زمانِ الأُسرة

الأسرة مهد المدنية ونواة الحضارة والتاريخ البشري الأولى؛ لأنّها أوّل اجتماع رسمي ومشروع وملتزم. وكان الدافع العامّ لتشكيل الأسرة يدور حول المشاعر وغريزة الجنس. فالمدنية والحضارة البشرية قامتا على الالتزام وغريزة الجنس وقد نشأت مِن الأسرة وما بقي مِن حقوق وقِيمٍ استقرّت على هذه الغريزة وذلك الالتزام.

ويمكن القول بأنّ حضارةَ آخِر الزّمان - وهي مستقر نهاية تاريخ الحضارة البشرية - عليها أن تكون حضارة الأسرة أو حضارة الزّواج أو أن تسمّى بالحضارة المبتنية على الالتزام الجنسي. وهذا يدعو إلى القول بأنّها حضارة عنصرية في ذاتها أو هي حضارة تقوم على أساس الممارسة الجنسية. ولذلك نشاهد بأنّ الحقوق الزوجية تُعَدُّ مِن أبسط الحقوق المدنية؛ كما أنّ الحقوق الشرعية في الديانات تستند أساساً على هذه الحقوق وما ينجم عنها.

فمن الطبيعي أن تؤثّر جميع المآزق والمشاكل والمتاعب الناتجة عن هذه الحضارة وذلك بشَكل مباشر على الأسرة والعلاقات الزوجية والالتزامات الجنسية بصورة يمكن مِن خلالها الوقوف على خفايا معضلات الحضارة وجذورها عبر غرفة النوم والتطوّر الحاصل في جوهر العلاقة الزوجية. ولا عجبَ أن يتصدّر شعار المساواة بين الجنسين الشعاراتِ الأخرى في حضارة آخِر الزّمان، لأنّ كانون العذاب الراهن فيه قد زاد استعاراً مِن المأزق الموجود في علاقة الرّجل بالمرأة وقضايا الأسرة. كما أنّ قضايا الجنس تتصدّر الأزمات الاجتماعية العالمية حيث اتخذ المرشحون للانتخابات الشؤونَ المتفرعة منها كالطّلاق والإجهاض والتعقيم والمثلية الجنسية، فقد اتخذوها مطيةً لاستقطاب المزيد مِن أصوات الناخبين.

وإذا كانت الوحدة والعُزلة هي السبب الرئيسي لجميع الأزمات النفسية والاجتماعية التي يعاني منها الإنسان الحديث وتفرّعت منها أعراض كالمثلية الجنسية والشَبَق الجنسي والإدمان والطلاق والإجرام، فهي دلالة على حدوث شرخ في صميم طيّات العلاقة الزوجية المبتنية على آدم - حوّاء.

وتأتي الوحدة كأبرز سمات إنسان آخِر الزّمان وقد ذكرها القرآن، تأتي نتيجة لتدمير علاقة المرأة بالرجل. إنّها النواة المركزية لجميع الانهيارات المادية والروحية في العالم برمّته.

وإذا استندت وشيّدت أبسط قيم الأخلاق والدّين على الحقوق الجنسية والالتزامات الزوجية والحلال والحرام الجنسي، فما يعتري هذه القيم وهذه العلاقة من تطوّر وتهديم، سيتسرّب إلى كافّة عروق المجتمع والحضارة الحديثة ليغيّرَ مصيرَ تاريخها بجميع مفاصله.

وإذا استخدمت جميع الجهود البشرية المادّية والرّوحية والعلمية والفنّية والاقتصادية لتوطيد العلاقة الزوجية والأُسَرية وتعزيزها وإذا كانت الحضارة أُنشأت أساساً مِن هذا الحافز، فلابدَّ أن يتغلغل كلّ تطوّر سالب في صميم العلاقة بين المرأة والرّجل ويؤثّر على هيكلة المجتمع والحضارة الحديثة في عصرنا الراهن، وهذا هو الحال بالفعل.

إذن، فالعدمية الفلسفية والأخلاقية ناشئة وبشَكل مباشر من انهيار علاقة آدم – حوّاء؛ وكما كان نيتشه رسولَ العدمية الحديثة وحيداً وثارَ ضدّ العلاقة الزوجية - بين آدم وحوّاء - وألغاها، كذلك لاقى جميع العدميين والمروّجين لهذه الأفكار العدمية في العهد الحديث المأساة والويلات في حياتهم الزوجية؛ فمنهم مَن لم ينجح في إنشاء الأسرة أبداً، ومنهم مَن ثار على القيم التجارية / الجنسية أي العلاقة الزوجية وألغاها. ومِن هؤلاء يمكن الإشارة إلى كامو، وسارتر، وكافكا، ودوستويوفسكي، ومي شيما، وصادق هدايت[٨] وغيرهم.

ويجبُ القول بأنّ آخِر الزّمان هو ثمرة وحدة الإنسان الحديث والذي ينتهي في جانبه المعرفي إلى الآراء العدمية والوجودية وفي بعض الأحيان إلى الأفكار العرفانية، أمّا في جانبه الشعبوي، فينجرّ نحو الجريمة والإباحية والشذوذ الجنسي والتردّي الأخلاقي والأزمات الاقتصادية والسياسية والعقدية على مستوى العالم.

إنّ هذه الوحدة نعمةٌ مقنّعة وماورائية كامنة في ذات الإنسان لتدفعَ تاريخ الحضارة نحوَ مسار مختلف وجوهر آخَر يظهر مِن خلاله إنسان جديد وأفضل. ويمكن أن يحمل هذا الإنسان الجديد هويتين متباينتين: روحانية إلهية؛ أو فاسدة مجنونة!

كما أنّنا اليوم أمام تيارين عدميين على صعيد العالم: ١. عدمية عرفانية تحرّرية مبدعة؛ و٢. عدمية مجرمة إرهابية.

---

[٨] صادق هدايت ولد في ١٧ فبراير من ١٩٠٣ في طهران. ومات منتحراً في باريس عام ١٩٥١ في ٩ أبريل - بالغاز. مِن كُتبه: "توضيح رباعيات الخيام"، و"البومة العمياء"، وقد ترجمَ هذه القصة الأخيرة إبراهيم الدسوقي شتّا، وغيره من العرب.

وعلى العموم، فعمر الحضارة الجنسية والعنصرية والشَبَقية المنتجة للحضارة التكنولوجية اللاإنسانية أوشك على الرحيل وفي سكرات موتها الأخيرة، وقد تسببت في ظهور نوعين من الإنسان: ١. إنسان رباني؛ و٢. إنسان شيطاني! وهما نتاج نوعين من تعامل الإنسان مع وحدته: منهم مَن يعطي الوحدة حقّها ويستسلم أمامها ويصل إلى الله، ومنهم من يفرّ منها بل يواجهها بعنف ليسقط في هذه المعركة ويسوق العالم نحو الهلاك والدمار.

والليبرالية والديموقراطية والاشتراكية لا تمثّل إلّا الوجه الفلسفي والأيديولوجي لأيديولوجية الفرار هذه. وبناء على ذلك، فإنّ الأنظمة القائمة على هذه المنظومات الفكرية وقيمها تحمل في طياتها الملنخوية والإرهابَ وتنتج حرّية ضدّ الحرية وديموقراطية ضدّ سيادة الشعب وعدالة مضادةً للعدالة. وهذا هو إقليم الدمار والإبليسية.

فدينُ الله قد جاء بوصفة شافية للحضارة تفوق الشبق الجنسي وتكون ماوراء العنصرية. فكما شيّد إبراهيم (عليه السّلام) أركانَ دينه على أنقاض قومه، عمل سائر الرسل بفس هذه الوصفة والسُّنة. لكن لم تسلك غالبية البشر هذا السبيل واتخذت طريقاً معاكساً قاربَ على نهايته ليهدم معه هذا النمط مِن الحياة وهذا النوع مِن الأسرة وهذا الشَّكل مِن الحضارة.

فما يحدث اليوم في آخِر الزّمان، إنّما هو مسار طبيعي لوقوف البشر أمامَ دين الله. إنّه آخِرُ زمان الكفر والشِّرك والنّفاق حيث تبزغ من بقايا حطامه بشائر شمس الحضارة الروحية المتفوقة على الشبق الجنسي والتكنولوجيا والعنصرية.

وكنموذج ووقفة متأنّية للحروب التي حدثت أثناء الفترة المعاصرة تظهر أنّ جميعَ الحروب اندلعت بخلفية عنصرية وقومية؛ العنصرية الآرية الألمانية والبريطانية. وهذه هي عنصرية بني إسرائيل اليوم وقد تشكّل نقطة التوتّر في العالم. فجميع الحروب نشأت مِن روح عنصرية ولا نستثني من ذلك حرب العِراق ضدّ إيران - حيث كان يحمل روحاً عنصرية عربية عنيفة.

وكانت الغاية من خلقة الإنسان وإرسال الرُّسل أن يلتقي الإنسان بربّه في وحدته ليكونَ ربّانياً مثلَه. إذن، فحقُّ الدّين هو حقّ الوحدة، بينما اتجاه الحضارة السائدة في العالم ضدّ الوحدة - مما يجعل الفطرة الإنسانية الحقّة في مأزق

مع هذه الحضارة. فهذه الحضارة الباطلة تأزّمت بذاتها ودخلت مأزقاً يقودها نحو الانهيار الذاتي وأصيبت بوحدة وعزلة مفروضة ومعذّبة قاهرة.

والإنسان التكنولوجي إنسان مضادّ للوحدة ولذلك أصيب بويلاتها بينما كان من الممكن أن يتّخذ من هذه النعمة المقنّعة سُلَّماً لبلوغ الفلاح والرفعة.

إذن، فمن أدرك آخِر الزّمان وصدّق حقوقَه فقد استغل هذا الانهيار لفلاحه وإلّا فينجرف في مساره للهروب من الوحدة نحو التكنولوجيا حيث هناك موعد هلاكه. عليكم أن تنظروا إلى ما حلَّ بالنّاس الإنترنتيين كي تروْا بأمِّ أعينكم هذا الهلاك.

وإن اصبحت الإنترنت اليوم خصماً وعدواً للأُسَر، فإنّها - وبصوت مدويّ - تنذر عن مخاطر جوهر الحضارة التكنولوجية اللاإنساني الذي أصبح عِبرةً لكلّ مَن اعتبر.

ولقد اضرمت حبّ الذات العنصرية والجنسية النّارَ في نفس الإنسان التكنولوجي الأمارة في أتون التكنولوجيا؛ فمها اشتدّ فراره من الوحدة، اشتدّت إصابته بها. ومهما تمادى في عبادة نفسه وحبّه لذاته، تضاعفت رغبته عنها، ومهما عبَد عائلَته وعنصرَه، تعاظم عذابه وتضايق مأزقه وأصيب بالكراهية والانتقام منها. إنّها ملنخوية العشق / الكراهية في جوف الأسرة التكنولوجية في آخِر الزّمان.

والمرأه والرجل يلجؤن إلى بعضيهما بعضاً بنسبة حاجاتهما المتبادلة. ويقودهما هذا الشعور في نفس الوقت نحو الخلاف والكراهية. فالكراهية والحقد والخيانة والجريمة في حياض الأسرة تأتي جرّاءَ هذا اللجوء وهي نتاج العلاقة الملنخوية المسماة بالعشق.

وانهيار أسرة آخِر الزّمان ينتج عن هذا (العشق) وهو عشق قاتل وفتّاك؛ لأنّ كليهما يسعيان إلى احتلال روح الآخَر. وآخِر الزّمان نتاج انهيار هذا العشق الشيطاني. إذن، فهو على حقّ.

ويستند آخِر الزّمان إلى حقّ أكثر توسعاً، وتأصّلاً، وإلهية من الحقوق العرفية والشرعية والاجتماعية والعنصرية والعاطفية والاقتصادية والسياسية.

ولقد توصّل كلٌّ مِن ماركس وإنجلز - مؤسسي الشيوعية والمنظّرين لانهيار الأسرة العنصرية والجنسية والطبقية - إلى سرٍّ كبير وحقٍّ عظيم في التاريخ؛ حين أدركا بأنّ الأسَرة هي الركن الرئيس للاستغلال والجور التاريخي الذي واجهه البشر، ولكنهما أخطئا في العلاج حيث ظنّا بأنّ مجرّدَ إصلاح شَكلي في الأسرة مِن شأنه أن يقضي على ملكة الجور الكامنة فيها. فلم يكتشفا - نظراً للرؤية الإلحادية السائدة على آراءهما - بأنَّ العزوف عن العنصرية والاتحاد مع الله وعشقه هو السبيل الوحيد للتخلّص من العنصرية. وعلى الرغم مِن الرؤية الإلحادية المهيمنة على تصرفاتهما الفكرية، إلّا أنّهما حققا مكاشفة علمية كبيرة كان باستطاعتها أن تقود المجتمعات البشرية إلى الثورة خلال قرن واحد - دون أن يعتبر شعبٌ نفسَه أصلح شأناً وأعظم مكانة مِن الشعوب الأخرى. وقد فشلت جميع الثورات التي قامت باسم الاشتراكية إثر هذا الإخفاق. ومع هذا، فقد قدّمت هذه التجربة القيّمة دروساً وعِبراً كثيرة للبشرية وأصحاب الرأي والفكر.

إنّ العنصرية أساسُ الجور، وتأتي عبرَ عبادة البنين وينبع هذا الأخير مِن عبادة النّساء. وعبادة النّساء حصيلة عبادة النفس الجنسية فهي مِن ضمن ما تجذّر وتعمّق في النفس البشرية، ولا ينجو مِن هذا الجور والكفر إلّا عِباد الله المخلصون.

فلا مناص من الأَسر في أصفاد الجنس والعنصر والجور إلّا بلقاء الله في الذات وفي القلب وفي الفكر وفي النّفس. إنّ جوراً يسمّى (العشق الجنسي) قد أصبح أساسَ كفر البشر. والنهاية الجبرية والقهرية لهذا الجور والكفر وعبادة الجنس يعني آخِر الزّمان.

وآخِر الزّمان يعني النهاية القسرية لتاريخ مليئ بعبادة العورات البشرية وعشية حضارة ماوراء الجنس؛ حضارة روحية تجعل مِن البشر أُسرةً واحدة.

فمن الطبيعي أن نشاهد قمة الجنون الجنسي والشذوذ والإجرام الشهواني الشبقي في آخِر الزّمان وهو يقصف ويعصف بنواة الحضارة المركزية وهي الأسرة.

وإن اعتبرنا عصرَ الحداثة عصرَ تدهور الأسرة وتقهقرها وعصرَ الفحشاء والبغاء في الشوارع، فهو بشَكله المبطَّن يعني هبوط الحقّ الذي يزهق الباطل وينهي سلطانه على الأرض.

وإنّ أفضلَ حقّ يتنّزل في آخِر الزّمان، هو حقّ وحدة الإنسان وعزلته. ومن أدرك هذا الحق وصدّقه فهو من المفلحين الذين ينجون من الوحدة بالالتحاق برتّهم.

والتودّد مع غير الله في زمننا هو إطار الذّنب والسُّوء والجنون والحياة والانهيار والعذاب. وتمهّد عبادة الأزواج والبنين للسقوط المدويّ الواقع في آخِر الزّمان.

«وفي ذلك اليوم، يكون الكلُّ وحيداً دونَ ملجأ، ولا صديقَ ولا عاصمَ إلّا الله» (القرآن)[٩].

ويجب أن يعود كلٌّ إلى ذاته ويدخل على نفسه ويختلي بروحه حتّى يعثر على كيانه. إنّ هذا حكم الله الواحد في آخِر الزّمان والسبيل الوحيد المؤدّي إلى نجاة الإنسان والتحاقه بربّه الذي يسكن القلوب بانتظار الإنسان.

إنّ جميع المعاناة والأزمات الكبرى في عصرنا الراهن وقعت في معقل العنصرية وقلبها النّابض. فشاهدوا حالات الانتحار العائلي في أميركا المتأزّمة وكيف يقوم الوالدان بقتل أبناءهم، ثمّ القضاء على أنفسهما.

فآخِر الزّمان يعني نهاية تاريخ العنصرية في الأُسَر، أي نهاية تاريخ العشق الجنسي وعلاقة العورة؛ وهو عشية العشق لله واكتشافه في الذات وإدراكه. كما هو نهاية عبادة العورة وبداية عبادة الفؤاد؛ فالفؤاد هو بيت الله. إنّه نهاية العنصرية وبداية العنصرية أيضاً!

فمن عبدَ نفسَه فليطِح بنفسه. هذا هو قانون آخِر الزّمان. فآخِر الزّمان يشكّلُ نهاية عهدِ عبادة النساء للرّجال وأَكْلُ النساءِ للأطفال - شئنا ذلك أو أبيناه. وما يحدث مِن ثورة وأزمة ومعاناة فإنّها نتيجة لهذا الحدث الإلهي. فمن سلّم وجهَه إليه فقد فلح، ومن أدبر وحارب فقد هلك.

ومِن أدلة نزول هذا الحقّ وهبوطه، هو ما نشاهده يومياً مِن تسكع النساء وتيهها في الشوارع ومعاداة البنين للوالدين واقتتال الأجيال والحرب العالمية بين المرأة والرّجل. فيجب متابعة هذه الأحداث ومشاهدتها وتقديم العلاج والحلّ الحاسم لها من هذه الزاوية. إنّ المواجهة القمعية والجاهلة مع هذه الحقائق المُرّة تؤدّي إلى أزمات وانهيارات عالمية - كما هو واقع الحال الراهن.

[٩] هكذا جاء في نصّ الكتاب، والباحث يعلم بأنّها ليست نفس الآية / الآيات.

إنّ كافّة القضايا والمشاكل والأزمات والمعاناة الاقتصادية والسياسية والدولية والعسكرية والمالية والأخلاقية والعلمية والفنّية والطِّبية والصِّحية والتربوية انعكاسات لمشكلة إنسانية وروحانية بحتة؛ إنّها وحدة الإنسان.

وفهمُ وحدة الإنسان يعني فهم أمِّ القضايا البشرية؛ لأنّ الله في ظهور والإنسان في عزلة. هذي هي المسئلة!

ومَن توجّه نحو الله فقد زالت وحدتُه وفُتحت عقدتُه. ومَن قاسمه الوحدة فيمكنه إنشاء علاقة عادلة وإنسانية مع أُسرته تحولُ دونَ هلاكه.

ولكن مَن الذي يمكنه التغلّب على هذا الكفر والجور والجنون التاريخي دون الاستعانة بإنسانٍ كامل مُدرِك للذّات وواصل للرّب؟ هو المنقِذ وتجلياته على هذه المعمورة.

الفصل الحادي عشر

آخِرُ زمان الأنظمة

١. آخِر الزّمان عهد يُترك فيه الإنسان لوحده ووحدته المفروضة. وبناء على هذا، يمكن الوقوف على جوهر الأنظمة آخِر الزّمان لغرض النّقد والنقاش والإصلاح.

٢. إذا كان النظام يعني تنظيم العلاقة بين الناس والفئات الاجتماعية وترشيدها فضلاً عن قيادتها، فيلزمه - بادئَ ذي بَدء - نشر روح التضامن والتكاتف وبسط الوحدة الفكرية والمشاعر والطموح المتحدّة بين مختلف شرائح المجتمع وبين الناس والنظام. فالشّعب هو الأساس ويمكن تحقيق هذه الغايات إذا كان النظام منبعثٌ مِن إرادته. هذا هو معنى الديموقراطية - عند تعريفها.

٣. ولكنّنا نعلم بأنّ العصر الرّاهن هو عصر الثورات الشّعبية ضدّ الأنظمة الملكية والسلاطين والحكومات الفردية الشمولية؛ مما يعني أنّه عصر الديموقراطية، وهذا بحدِّ ذاتِه يعتبر إلزاماً تاريخياً كامناً في نفوس الناس؛ لماذا؟ لأنّ بَشَرَ آخِر الزّمان يتّجه - وبوتيرة مطّردة - نحو العُزلة والإنطواء على الذات وتقليص علاقاته الذاتية مع العالَم الخارجي والنّاس. ولقد تقارنت هذه العزلة والإنطواء الذاتي مع ظهور المراكز المدنية وكبار المدن؛ بعبارة أخرى، كلّما انطوى البشر للعزلة بذاته، توجّه نحو الاجتماع هرباً مِن العزلة، حيث أصبح أكثر مدنية وحضارة. إذن، فالوحدة في آخِر الزّمان هي أمُّ الحضارة الحديثة حيثُ ظهرت بها المدن الكبار المترامية الأطراف.

٤. وهذا يعني بأنّ كلّما تجذرت الوحدة والعزلة في ذات الإنسان، كلّما تراكمت وتطوّرت في الخارج نزعته الاجتماعية. وهذا الأمر شكّل السّبب الخفي والنفسي الحقيقي لعدم كفاءة أنظمة الحكم الفردي والملكيات في العهد الماضي؛ ذلك لأنّ الشعبَ لم يتمكن مِن بذل الطاعة لجهة واحدة. وهذا ما تسبب في تفتيت وتآكل قوة الملوك وسلطانهم واندلاع الثورات الاجتماعية التي أنهت سيطرة كيان هذه الأنظمة الوضيعة بسهولة. إنّه حدث تاريخي ماورائي في نفس البشر حيثُ ساهم في ظهور الأيديولوجيات والآراء الديموقراطية والاشتراكية - باعتبارها ناتجة عن ذلك الحدث الماورائي.

٥. ونعلم - فضلاً عما ذكرناه - بأنّ الوحدة الروحية والخلق مع الذات يؤدّي إلى اكتفاء الهوية الذاتي واستقلاليتها والرغبة في الحرية أكثر مِن ذي قبل. وهذا هو الحافز النفسي والأساس الخفي لظهور الثورات المضادّة للمَلكية.

٦. إنّ وحدة آخِر الزّمان الآخذة بالتزايد، هي اللبنة الماورائية الأساسية للديموقراطية والليبرالية.

٧. وأوضحنا فيما سلف، بأنّ وحدةَ البشر في آخِر الزّمان نتاجُ فترة القيامة وحدث ظهور الرّب.

٨. إذن، فالديموقراطية انعكاس دنيوي وكافر لوحدة البشر في آخِر الزّمان وساحة القيامة ولقاء الله.

٩. إنّها وحدة ماورائية مفروضة وبغيضة وليست عرفانية. ومن هذا الواقع استغلت القوى التسلطية هذه النزعة الحديثة في الأفراد والمجتمعات لتبديل الملكية القديمة بالتستّر بملكية خفية وواسعة دون بلاط والتمويه بأنّ ما يقدّمونه هو حكم الشعب والديموقراطية وساسوا البلاد والعباد بأساليب أكثر تعقيداً وسرّية وطوّعوهم نحو بلوغ رغباتهم الاستكبارية. وبعبارة أخرى، قام هؤلاء - ومِن خلال الدعاية والتبرير الفلسفي والطوباوي - نحوَ تطبيق رغباتهم القديمة بحلّة جديدة ودسّوا السّم في العسل وقدّموه للشّعب وحصدوا أصواتهم وهذا لو تأمّلنا لوجدناه أصدق أشكال الديموقراطية اليوم ولم نشهد منه إلّا ما قلَّ وندَر.

١٠. ويجب القول بأنّ الديموقراطية ما هي إلّا اجتماع المنعزلين. فهذه حضارتهم وهذه مجتمعاتهم؛ مجتمع وحيد! مجتمع لا يضمّ سوى أجسام تُحصى وتعيش جنباً إلى جنب دونَ أيّ اجتماع روحي وعاطفي وعَقَدي. فهو جمع قسري مجبَر وجبّار وكلّما اتّسع جمعاً وكثافة كلّما ازداد اضطراباً ومحنة: اجتماع الحيارى!

١١. والأسرة معقل هذا الجمع المضطرِب وهي نواة المجتمع.

١٢. وهذا الجمع الحيران في هذا الشّكل مّن الديموقراطية نتاج انهيار علاقة آدم – حواء تحت سقف الأسرة.

١٣. والديموقراطية حصيلة انهيار الأسرة حيث جلس الحزب والنادي والاتحاد والمنتدى والحكومات الديموقراطية مجلسَ الأسرة وحلَّ محلّها.

١٤. فالأسرة - إذن - ضحية الديموقراطية. وظهرت الديموقراطية وترعرعت حيث ذُبحت الأسرة.

١٥. وكما كانت الملكيات حصيلة استمرارية عنصر خاصّ أو أسرة في قوم ما، فبانهيار العنصر، والأُسر، والتزاوج، أفل نجم الأنظمة الملكية، وإنّما البحث عن الحرّية والديموقراطية نتاج هذا الانهيار.

١٦. ومِن أجل ذلك، يمسي المجتمع الرأسمالي والإمبريالي حصيلة هذه السلطوية الخفية واللاأسرية واللاعنصرية الموجودة على المشهد الديموقراطي. ومن هنا، فإنّ أكثر الأنظمة الممارسة للإمبريالية تراهن في بقاءها على اتّباع الأيديولوجيات الديموقراطية والتحرّرية التي تطبّقها عملياً حشود المجتمع المكثفة الوحيدة القاطنة في كِبار المدن.

١٧. والإمبريالية - بصفتها سِمةً بشرية بالقوّة - تأتي جرّاءَ عملية هروب الإنسان المنعزل في آخِر الزّمان عن وحدته ليتوجّه نحوَ الإمبريالية والقضاء على النّاس، لإنّه يشعر بالانعدام في عُزلته ووحدته.

١٨. وهناك إنسان وحيد منكفئ آخَر وهو الإنسان العارف ويقف بإزاء الإمبريالي. إنّهما أشدّ النّاس عزلة ووحدةً على وجه الأرض؛ أحدهم فرَّ مِن وحدته والآخَر تقبّلها برحابة صدرٍ وأقامها في نفسه.

١٩. إذن، فالحضارة الإمبريالية في آخِر الزّمان ونظامها الديموقراطي حصيلة هروب إنسان آخِر الزّمان مِن وحدته. إنّه أشدّ أنواعِ الكُفر وأساس كفر البشر بكيانه. فالمجتمعات الديموقراطية الإمبريالية تمثّل مظهراً للاغتراب عن الذّات والجنون والملنخوية.

٢٠. ولو ترأّسَ الحكمَ إنسانٌ وحيد صالح، قادَ المجتمع نحو الإيمان والسّلام والرشاد والسموّ الروحي. إنّه الغاية مِن ظهور المنقِذ في آخِر الزّمان -كأكمل وحيدٍ عارفٍ بالعالم.

٢١. والإنسان المنعزل إمّا أن يكدح إلى ربّه ليفلح، وإمّا إن يفرَّ مِن نفسِه ليسقط في فخّ الشيطان ومَن يمثله مِن الإمبرياليين ودجّالي العلوم والتقنية والفنونّ.

٢٢. والإنسان المنعزل إمّا أن يكون عارفاً يدور حولَ الرّب / المحور، وإمّا أن يكون ديموقراطياً يدورُ في دوّامة الإمبريالية المجنونة العابدة للتكنولوجيا.

٢٣. والإنسان المنعزل مع نفسه، إمّا أن يتّحد مع نفسه ويكون مثلَ الله، وإمّا أن يغترب عن ذاته ويجنّ.

٢٤. والأنظمة الديموقراطية أشدّ الأنظمة السياسية شيطانية على مدار التاريخ، حيث تسوق المجتمعات دون هوادة نحو الاغتراب عن الذّات والجنون والملنخوية.

٢٥. والأنظمة الديموقراطية هي الأخ غير الشقيق للأنظمة الأريستقراطية / الملكية / الاستكبارية والسلطوية إلّا أنّها تمارس إجرامها اليوم باسم النّاس، لانّها تفعل الجرم والجريمة مِن خلال شرعية أصوات النّاس فهم مبرَّؤون مِن أيّة مسؤولية بموجب هذا التفويض: ملوك بلا تتويج، وسلاطين دون التزام وأكثر من ذلك؛ فلعلّهم هم الذين يقومون بتعيين رؤساء الجمهور ونوّاب الشّعب مسبقاً، ثمّ يراجعون أصوات الشعب!

٢٦. وهناك سؤالٌ مُلحّ: هل يمكن تطبيق الديموقراطية في معناها الحقيقي على أرض الواقع؟ وهل يمكن تحقّق ديموقراطية حقيقية؟

٢٧. إنّ الديموقراطية الحقيقية تتحقق عندما يستعيد الناس إنسانيتهم ليصبحَ كلُّ واحد منهم إنساناً يعبّر عن نفسه بهوية فردية واحدة تمثّله وليس شخصاً ضمن سربٍ مِن الناس.

٢٨. وهناك أمة مؤمنة حقيقية واحدة يمكن لها أن تطبّقَ حكومة الشعب فقط؛ فعندها تختار لقيادتها العرفاءَ والحكماء وأولياء الله.

٢٩. والمؤمن مَن اختارَ وحدتَه بشَكل تامّ وكامل وتقبّلها وانكشف إلى ذاته في جميع الأمور؛ وعرف إلهَه الباطن وسالمه. إنّ هذا المجتمعَ مجتمعٌ عادل، حيث يحلّ كلُّ فردٍ محلَّه ويختار عارفاً لقيادته. إنّه مجتمع إمامي وصاحب إمام.

٣٠. والمجتمع الشعبي الحقّ، مجتمع مؤمن بقيادة إمامه. وحكومتُه حكومة مناوءة للاستكبار ومقارعة للتكنولوجيا ومضادة لمحاكاة الناس.

وفي غير هذه الحالة، تمثّل الديموقراطيات صورة الشيطان وملنخوى الملكية حيث الجور الذي لا يسبر غوره والتعسّف الذي لا يبوح بخفاياه، والظلم الذي لا يكشف عن تعقيده. إنّه أفتك مستقرّ للإنسان الفارغ عن الحقيقة. إنّ الديموقراطية أكبر كذبة تاريخ الحضارة في حاضرنا الحديث. وليس هناك عدوٌّ للإسرة أكثر ليونة من الديموقراطية.

الفصلُ الثّاني عشر

شريعةُ آخِرِ الزّمان

ومن جانب يمكن القول بأنّ عصرنا يحمل أعظم تراجيديا لموت السُّنن والشريعة في مذبح التاريخ؛ موت لكافة القيم الموروثة منذ آلاف السنين في مجال الدّين والأُسرة والعلاقات الاجتماعية والمبادئ الأخلاقية، وموت لرموز الدين القديمة -كأجلى صورة لمعنى العدمية.

ويحمل هذا الموت والتراجيديا في باطنه حقيقتين: ١. موت الفِكَر؛ و٢. موت المعتقَدات والآداب والتقاليد المرائية والتافهة، وهي بالحقيقة تعبير عن انتصار التفكير الحقيقي والأخلاق السّامية. إنّه الوجه الجميل والحقّ لهذا العهد مِن جانب والوجه القبيح والعدمي الجحيمي الناتج عن هذا الانهيار بضحاياه الجمّة والخشية مِن قضاءه على الأجيال المقبلة - مِن جانب آخَر. ولم تكن الصّورة قاتمةً تماماً، فهناك ما يلوح بالأفق من إشراقة الحقيقة على أطلال هذا الحدث، حيث تزدهر مِن خلاله الأخلاق النابعة عن الفطرة البشرية والدّين العرفاني والعواطف الروحانية والآداب الإلهية.

وكلُّ ما حدث وحلَّ مِن إضرار وخسارة في عهدنا، نتج عن التباعد الحاصل بين الحقيقتين المذكورتين آنفاً. إنّ عهدنا حقاً هو عهد اندلاع الثورة العرفانية في ذاتِ الإنسان ولقد أظهرت الثورات الاجتماعية صورةً سطحية واستعراضية لهذه الثورة العارمة.

والمبادرة الوحيدة التي مِن شأنها تقليص الفراغ الزمني الحاصل عن هذا الانهيار والسقوط كي تقلّل مِن عدد ضحاياه، هي إحياء الدين والمعرفة والأخلاق العرفانية كبديل للتقاليد التافهة والمذاهب الزائفة والأخلاق المنحطة التي شارفت على الموت تاريخياً.

وفي واقع الأمر، يمكن القول بأن حانَ الموعد التاريخي لموت مذهب التّفاق والمشاعر الزائفة والتقاليد المرائية والأخلاق الماكرة، بدلاً عمّا يدّعيه خطأً الكثيرُ مِن العلماء عن نهاية نفس حياة الحقيقة والإيمان والفضائل الإنسانية - فشَتّان ما بينهُما.

فإذا كان الدّين حقاً، والأخلاق فطرةً والرّوح خالدةً، فإنّها سرمدية وينتهي ما هو شرك ورياء.

فما ينهار ليس العشق، بل المداعبة باسم العشق، وليس الدّين وإنّما منهج الرياء والتديّن المرائي، وليست الفضيلة بل العرفان الزائف، وليس الأدب بل الأدبيات، وليس الشعور وإنما الشِّعار، وليستِ الشّريعة بل النّفاق والتظاهر الكذّاب.

إذن، فالمجتمع اليقظ والواعي والملتزم بالآداب الروحية يكون في طليعة المستقبلين لهذه الثورة والقيامة العالمية ليرحّب بنور العرفان بتلك القارعة التاريخية.

ولو عبّرنا عن هذه العدمية بالبرزخ فإنّها تعني الخروج مِن جنّة التقاليد والاستعداد للدخول في رضوان الله، وهو متعذّر إلّا لمن استنار بنور العرفان.

وإن تلكّأنا عن تقديم تبيين وفهم عرفاني عن العُرف والشّرع والموروث وتكاسلنا عن تحرير أنوار الهداية الدينية من أُطُرها وقيودها البائدة، سنخسَر الدّين كلَّه وسنواجِه انهياراً تاريخياً ضخماً.

ولقد غصّت الأخبار والروايات الإسلامية بعلامات آخِر الزّمان ولا سيّما ما تحدّث منها عن إلغاء الشريعة ومظاهر الأخلاق عند النّاس. فإن لم ندرك الأنوار العرفانية الساطعة من حُطام هذا الحدث، فربما تدفن الحضارة والأمة تحت أنقاضه.

وببيان آخر، لا تستقبل النّفس البشرية في آخِر الزّمان إلّا الدّين الخالص والمحبة الخالصة والمعتقَد الخالص والأخلاق النزيهة. إنّها بركة ولطف ربّاني عظيم وإرادة قُدسيّة.

إنّ مواجهة هذا الحطام بالسبل القمعية والعشوائية يزيد الطّين بلّة والخراب خراباً ومِن أشدّ الأعمال كُفراً ولا سيّما بالنسبة لنا نحن الإيرانيين - باعتبارنا مهداً للعرفان العالمي.

فلا يمكن إلقاء العتب واللوم على مَن أصيب بالتقيّؤ والغثيان. وعلى العكس من ذلك، يجب تعزيز هذا الغثيان ومضاعفته بالمعرفة العرفانية. إنّه غثيان تاريخي وماورائي لا يمكن الصمود أمامَه إلّا بهلاك مَن يقاومُه.

فالبشرية في حالة اجتياز غاشية خطيرة ومُخيفة. فإن أخفقت في فهم ضرورة المرحلة واخطأت الطريق، فلربّما ضحّت بالدّين والأمة.

والنّفس البشرية هي الأخرى في حال تطوّر وانسلاخ ميتافيزيقي. إنّه حدثٌ يجب فهمه. وكفانا خداع النّفس والهرطقة وشتم الأعداء الوهميين والاستعمار والغرب ومَن كان على شاكلتهم؛ فالغربُ أتعس مِن الشرق، وإن كان

هيمن علينا ثقافياً فمن فقداننا لديننا ومعارفنا. فلا يمكن علاج هذا المرض بالمواجهة الإعلامية والسّياسية والأمنية، وإنّما ينحصر العلاجُ بالعرفان.

لا يمكننا بعدَ الآن خداع الشباب للتمظهر بالديانة عبر تقديم حوافز وجوائز مالية وتطميعهم وما شابهَ ذلك، فنزداد فضيحة ويسوء الدين صيتاً.

وكم مِن عالم لا زال يصدر الفتوى تلو الفتوى بالارتداد والالتقاط وِفقاً لموازين القرون الوسطى .. ألا إنّه في سُبات عميق!

وكم من عالم مستغرق في الفقه يصدر فتاواه بالحلال والحرام وفقاً لأطر الأعوام الألف الماضية .. إنّه يسقط في الكفر مِن حيث لا يشعُر.

وإن لم يفهم بعض علماؤنا ما يدور في آخِر الزّمان فقد خسروا فرصتهم التاريخية الأخيرة للقيام بدورهم الرّسالي للأبد.

ومَن حصر فهمَ حلال شريعة محمّد الإبدية وحرامه في الفقه دونَ غيره، سيفقد عمّا قريب كلَّ دينِه ولم يتمكّن مِن الحفاظ على الحدود الشّرعية حتّى في أسرته وستصلُه الأزمة في عقر داره.

فإن لم نستطع فهمَ الشريعة بالعرفان وفهم العرفان عبرَ الشريعة، فسنخسر ديننا ودنيانا بالكامل ليذهبا أدراج الرياح هباءً منثوراً. وما هي المساعي التي نبذلها في أعمالنا، إلّا بيانات لهذه الحقيقة وإيضاحات لهذا الفهم.

فكفانا لعن جيل الشباب، وإلّا فسوف نلعنُ أنفسنا.

إنّ آخِر الزّمان هو موعد موت المذاهب التاريخية وميقات الاحتفاء والسرور بظهور المذهب الفطري والعرفاني.

ولا جحيم سوى سوءِ المعرفة.

ومَن أخفق - فرداً كانَ أومجتَمَعاً - في فهم الدين العرفاني وإحياء فطرته الدينية وبعبارة أبسط مَن لم ينتمِ للسالكين والسائرين في سبيل العرفان، سيُدفن في تلك الأطلال. ومَن لم يفهم الدّين إلّا مِن زاوية الآداب الشرعية، فقد أوشك على الاضمحلال تاريخياً.

ولابدّ للشرك والكفر مِن الفناء. إنّه معنى الدّين وكنه الرسالة الإلهية لإهل الدّين في آخِر الزّمان. إنّه حقٌّ آخِر الزّمان. ومَن أدرك هذا الحقّ وأعطاه حقَّه، نجى مِن الفناء؛ لأنّ مَن اختار - فرداً كان أو مجتمعاً - اختار الكفر البوّاح والمعلَن، فقد وقف على أعتاب الدّين الخالص؛ لأنّ الكفرَ والإيمان جاران ذاتيان.

الفصلُ الثّالث عشر

رزقُ آخِرِ الزّمان

الدّم غذاءُ الجسد ويُصنع عَن طريق الأَكل الذي توفّره الطبيعة. والمعرفة غذاءُ الذّهن وتُجمع عن طريق التعليم والتربية. أمّا المحبة فغذاءُ القلب وتُجلَب عبر المشاعر المتبادلة الإنسانية.

إنّها الأرزاق الثلاثة الإنسانية من العالم وهي أساس حياة الإنسان ولا تخصّ غيرَه مِن الموجودات.

فالجسد يعثر على رزقه بالعمل على الطبيعة. والذهن من خلال تأمّله الخاصّ حولَ الطبيعة وهو التفكير. والقلبُ عبرَ تعامله الخاصّ والمركَّز على الطبيعة وكائنات العالم ولا سيّما سائر الناس.

وتَكسب كلٌّ مِن هذه الأركان رزَقها بواسطة جهدِها الخاصّ الموجّه للعالم.

فأَكل العالم، ومعرفة العالم، ومحبة العالم ثلاثةُ أعمال تجلب ثلاثةَ أنواع مِن الأرزاق. وهذه العلاقة الخاصة مع العالَم والعالَمين والنتاجات والتلقّيات الثلاثة، تؤدّي إلى نموّ الإنسان وبقاءه.

وتغذية الجسم عبرَ الدّم، تُبقي الإنسان حيّاً في العالم والطبيعة ومن دونه يكون الحتف وبالتالي الخروج مِن عالم الطبيعة المادّي.

أمّا تغذية الذهن - وهي العلم والمعرفة - توفّر تعايشَ الإنسان مع العالم وبدونِ هذا التعايش يهوي الإنسان في بئر الحياة والحيوانية البحتة.

وتغذية القلب - وهي المحبة - تظهر معايشة الإنسان لروح العالَم. إنّه تعايش روحاني مع العالم، حيث حياة الإنسان على العالم وتنتهي بحياة ماورائية.

والحياة في العالم، ومع العالم، وعلى العالم حصيلة أرزاق الإنسان الثلاثة فيه وتتسبب ثلاثة أنواع ودرجات مِن الحياة الإنسانية: حيوانية، ونفسية، وروحانية؛ وثلاث حركات: حركة في العالم؛ وحركة في مسار العالم، وحركة في ماوراء العالم، وبعبارة أخرى هي ثلاث درجات مِن نموّ الإنسان.

والعمل والتفكير والمحبة، ثلاثة وجوه في التغذية والحياة وحركة الإنسان في العالم.

ومَن يأكل دون عمل، يُصَب بتكثف الدّم وعدم امتصاصه وأشكال الأمراض الأخرى وبالنهاية بالفقر ومجاعة الرّوح والجسد.

ومَن يطعم ذهنَه بكميات كبيرة مِن المعلومات والأخبار ونقد الآخرين دون تمريرها مِن مصفاة الفكر والتعمّق والبحث، فسوف يُصَب بالتّضخم النفسي والانكماش الرّوحي وتتوقّف لديه حركة الإبداع والتجديد ليتحوّل إلى عالم الحمقى والمتأزّمين وسوف لا يواكب الرّكبَ في هذا العالَم.

ومن يتلقَ المشاعر المرهفة والمحبة مِن الآخرين دون أن يبذلها لهم بالمقابل فقد أصيب بالثقل العاطفي والقسوة والانحطاط الروحي لينتهي به الأمر إلى الإفلاس والاستجداء العاطفي والوقوع في أسر الجسد وسوف يعجز عن تلقّي محبة الآخرين. كما يصاب ذهن الإنسان وكبده بالمجاعة مِن دون تفكير ومِن دون عمل ويحرمان مِن الأكل والتوجّه المعنوي في العالم.

والسكون والخمول يجلبان الأمراض ويمهّدان لمجاعة الجسد؛ كالسُكري والكوليسترول؛ والعزوف عن التفكير والطيش يؤدّيان إلى جمود الذّهن وربّما إلى الحزن والجنون. والقسوة في التعبير عن المحبة توجب البلادة وظلمة القلب والروح؛ لأنّ الإنسانَ بوسعه أن يتلقّى محبة الآخرين بمقدار ما يبذلها لهم.

والإنسان يستهلك بقدر ما ينتج وإن كان يمتلك احتياطياً ضخماً، فقانون العدالة يمنعه مِن الاستهلاك.

ويكون الإنسان محبوباً ووجيهاً عند الآخرين بقدر ما يسدي إليهم المحبة ويغمرهم بالمودة، عندها تبلغ المحبة فم قلب الإنسان ليمتصّها سكناً وبعضها إقامةً. والمحبة الأُحادية الجهة، لا تدوم إلّا قليلاً ولا تتأصّل في القلب ولا تقيم.

وينخفض في آخِر الزّمان - وبرَكة الخدمات التي تقدّمها التكنولوجيا المتطوّرة - عمل الإنسان الجسدي والفكري والقلبي لينتشر كلُّ هذا الكم الهائل مِن الأمراض الجسدية والأعراض والأسقام النفسية والروحية؛ ذلك لتقلص إمكانية هضم وامتصاص هذه الأطعمة الثلاثة لدى الإنسان. وبناء على هذا فإنّ الحياة البشرية أمامَ خطر محدق وأزمة متفاقمة أدخلت حياة الإنسان - بأشكالها الثلاثة - الجسمية والنفسية والروحية في دهاليز الهلكة والفناء.

فكثُرت الأطعمة وتنوّعت وازدادت لذة ومُتعة، بينما تثاقل هضمها وتجشّم امتصاصها بنفس الوتيرة لتظهر شتّى الأمراض التي عجز العِلم الحديث عن تقديم علاج ناجع لها.

وما هي المعلومات المتزايدة والتعليم الإجباري والمعطيات الإعلامية إلّا تعطيلاً للإبداع ومساقاً بالبشر نحو الحماقة والجنون.

وبمقدار ما تحوّلت العاطفة الجنسية إلى الإباحية وإلى سوق مزدحم يعرض بضاعته العارية على لهفى الجنس وتيسّرت وتنوّعت سُبل النشوة الجنسية، تصحّر ضمير الإنسان شعوراً ومشاعراً وتجوّع قلبه للمحبة فِراراً مما يجري واقتربت روحُه مِن الفناء والموت حسرة وخسارة.

وبمقدار ما تيسّر الحصول على الأطعمة الجسمية والنفسية والروحانية وتنوعت سُبل الحصول عليها، تردّى أثرُها وتقهقر لبّها وتعسّر هضمها وامتصاصها، وحياة الإنسان سائرة نحو الفناء والعدم مِن جرّاءه. وما كان أمامَ بشر آخِر الزّمان المتدهور والمفجوع إلّا السقوط في مستنقع الإجرام والخيانة بحثاً عن النجاة وتعويضاً للمجاعة هذه وما لاقى من ويلات هذا السقوط أسوأ مِن المجازفة بحياته والمتاجرة بأمنه: أمن الجسد والنفس والقلب والروح، وسلامتها.
وبعبارة آخرى، فلم يعهد الإنسان - وعلى مدى التاريخ - أكثر تعاسة ومجاعة في الجسد والنفس والقلب أكثر مما هو عليه الآن. ويختم بواسطة هذا الشعور شعورٌ بالعدم يهدّده تارة مِن صميم ذاته وتارة مِن خارجها.
والإنسان الحديث يأكل دون أن يعمل، فعمله في انحسار وانخفاض ولا سيّما في المجتمعات المتطوّرة والفئات المترَفة والمتنعّمة؛ حيث الوطأة أشدّ وأوسع.
والإنسان الحديث يعلم ويتلقى كلَّ معلومة ونبأ بالاستخدام المتاح للإنترنت ووسائل الإعلام الأخرى؛ ولكن دون تفكير وتمعّن.
والإنسان الحديث يلبّي رغباته الجنسية بطُرق غير مشروعة متى وأينما أراد، دون القيام بجهد عاطفي خاص ومع مَن يريد مِن الجنس الآخر.
ومع هذا، فكلما نال ما أراد، ازداد شراسة ومجاعة وحرصاً وتعاظم خوفه من الهلاك ليمسي مجنوناً، ومريضاً ومجرماً؛ فهو سرطاني يحمل ذهناً ملنخوياً وشخصيةً مصابة بالشذوذ الجنسي والإيدز في جحيمه الأرضي.
وأما غذاء الإنسان الوجودي في آخِر الزّمان، فهو مزيج مِن الاصطناع والفنّ والاقتراض والرّياء والرمزية الرديئة الجوفاء لتتبدل ضدّها فتكون غذاءً مضاداً للغذاء. فخبزته حمضية مضعّفة تقدَّم بأبهى الألوان والزخارف. ومعلوماته مِن قبيل الإعارة وفنية وتبديلية بحتة. وأمّا مشاعره فتمثيل وعلاقاته كذب وزيف. إنّها أرزاق ضدّ الرّزق تحوّل

الإنسان مِن صاحب كيان إلى موجود بلا كيان. فإنسان آخِر الزّمان يمضي نحو العدم برهبة متزايدة ليبتلي بالمجاعة والغش والجنون والإجرام والانتحار ومقارعة النفس بالرياء والملنخوية.

وكلُّ قيم إنسان آخِر الزّمان وقواه وغذاءه ومنتجاته مرعبة وجحيمية ملنخوية؛ إنّها شيطانية: غذاء مضادّ للقوة، ومعلومات ضدّ الحقيقة يغترب الإنسان فيها عن نفسه وعن واقعه وطبيعته وعالمه؛ عشقٌ ضدّ العشق.

ولقد دأب البشر عبرَ التاريخ وعمل ما عمل ليوفّر حاجاته ويلبي رغباته بشَكل أفضل وأيسر وأقوى. لكنّه أخطأ الطريق وجعل مِن جنّته الوهمية جحيماً واقعياً. فآخِر الزّمان يعني نهاية تاريخ الواقع الموضوع والفهم المجعول والعمل المقلوب. نهاية تاريخ الملنخوية والخداع والذي يبلغ ذروته في آخِر الزّمان ليتهاوى وينهار. إنّه انهيار الجهل وخداع النفس.

كما سعى البشر طوالَ عمره التاريخي وحياته الفردية أن يغترف مِن ينبوع المحبة جرعة ويصبح محبوباً عند الآخرين أو عند زوجه وأبناءه على الأقل. ومن الهوان أنّه لم ينل مناه هذا حتّى مقارنة بآماله الأخرى ويطرد وينفى بحقد وكراهية بانتهاء عمره الفردي والتاريخي وهذا هو السبب في انهيار الأسرة في آخِر الزّمان وينتهي بانهيار المجتمع والحضارة؛ لأنّ لبَّ المجتمع ومخّه - أي الأسرة - أصبح خاوياً محترئاً.

وآخِر الزّمان بمثابة نهاية تاريخ أكل البشر والذي بلغ العلن والوضوح؛ أكلُ البشر باسم الحبّ: حبّ البشر الليبرالي، حقوق الإنسان، الرّخاء؛ السعادة؛ والمساواة، وغيرها؛ كلّها أقنعة لأكلِ البشر.

وأصبح العالم لإنسان آخِر الزّمان مدسوساً بالسمّ: لأنّه يحيى حياة الجحيم ويأكل مِن رزق الجحيم وهو عفن وسمّ وفساد وسَقَر ومادّته النفط؛ مادة النّار: الأطعمة النّارية، والآراء النّارية، والمعلومات النّارية؛ وأنواع العشق النّارية!

ونشاهد ظهورَ أجيال يعانون وهم في قمة الرّفاه والشَرَه والنَهَم مِن فقر الدّم وسوءِ التغذية دون أن يحملوا في عقولهم قِيمة قيّمةً ورأياً حصيفاً. هم أجيال متعطّشة ومجنونة للمحبة، مصابة بالجنون الجنسي والعاطفي ومِن هذه المحنة حدثت ظاهرة الشذوذ الجنسي المعبرة عن مجاعة عاطفية؛ ذلك لأنّ العلاقة العاطفية منعدمة بين الوالدين ولم يجرّب الأبناء هذه المحبة فضلاً عن العبادة للحيوان والذي راجت بضاعتها في البيوت اليوم للتعويض عن مجاعة المحبة. والكيمياء أصبح غذاء بشر آخِر الزّمان والرياضيات فكره والخلاعة والإباحة مشاعره. وحلّ الإحصاء والرّقم

محلَّ العلم والإدراک. إنّ بشرنا اليوم بشرٌ هوى في أسفل السافلين، وقد تجسّد هذا الإدراك أمامه بالحداثة والتكنولوجيا والأفلام الإباحية.

وبشرُ آخِر الزّمان لا يعيش في العالم وعلى العالم ومع العالَم وإنما هو دون العالم. وقع في جُبّ العالم؛ في درکِ أسفل السافلين!

بشر فُسخ ومُسخ ونُسخ ورُسّخ في الفولاذ والإسمنت والقطران.

والحلال يعني ما كان قابلاً للحلّ والجذب في داخل الإنسان. فالعمل يوجب أن يكون الرغيف حلالاً طيّباً، والفكر يوجب أن يكون العلم حلالاً نافعاً، والمحبة توجب أن تكون العواطف تحظى بالحلال المقبول. وبشرُ العصرِ الحديث أمسى يبتعد عن الحلال الطّيب.

في ما مرّ من أيّام التاريخ، كانت الفلسفة والعلم والفكر البشري طُرقاً نحو الهاوية والدَرَك الأسفل وقد ألقت حملها اليوم على عتبته. ولم يُوصِل البشر إلى هذا الحال سوى محاربته مع دين الله ومحاربة الشركة معه أيضاً ورياءه مع الله؛ فلا مفرَّ ولا نجاة إلّا عند الله.

ويحتاج بشر آخِر الزّمان إلى توبة خالصة نصوحاً واعلام براءة مِن كلّ تاريخه والطريق الذي سلكَه؛ توبة مِن تاريخ حضارة التكنو! فالتكنو يعني عبادة الدنيا خالصاً لها. والتكنو، كفرٌ مقدّس طُلِيَ بمكياج العلوم والفنون.

وحضارة آخِر الزّمان مشهد لظهور جحيم النفس البشرية وتجسّده. والبشر اليوم يواجه نفسه الأمّارة بكامل قواها. وكما يعبّر عنها القرآن: «تكون القيامة عندما تُبلى السّرائر. فالسعيد يومئذ مَن صدّق الحقيقة وتاب ولجأ إلى ربّه، والشقي مَن أنكر وتنكّر عن المسؤولية الملقاة على عاتقه. إنّه يقع في عذاب الله.»

ومن حاول إسقاط كلِّ هذه الفضائح والعذاب والجنون والإجرام على عاتق الآخرين مِن الزمن والنّاس والحكومات والمصير والتاريخ، فإنّه يشقى ويهلك.

فبشر آخِر الزّمان جدير - أكثر مِن أيّ عهد مضى - بشمول ظروف التّوبة الجبرية والعودة والرجعة إلى الله. إنّها نعمةٌ مقنّعة وإن لم يستغلها فينكّل بعذاب أعماله وأفكاره وأعمال وأفكار آباءه وعنصره وتاريخه. ومصير بشر آخِر الزّمان مصيرٌ واحد؛ لأنّه يعيش حالة شقاء واحدة وموقف حضاري جحيمي واحد. ولا مفرّ ومهرب أمامه إلّا إلى الله، وهو سبيل خروج أولياء الله ونجاتهم؛ أولياء يعيشون بمعسكر المُنقِذ الموعود بمثابة أبواب الآخرة، وهم مَن

خرج وتمرّد عن هذه الحضارة بنفسه وروحه، لكنّهم يعيشون بين النّاس ليدركوا التائبين. وهذه هي الحريّة العرفانية وتعني التخلّص والتطهّر مِن دنس كلّ هذه الحضارة التاريخية - بخيرها وشرّها.

وعلينا أن نعلم، بأنّ أبوابَ الدخول لهذا الجحيم الآخِر الزّماني هي نفس الأبواب والمغريات العلمية والفنية والثقافية. فيمكن التخلّص مّن هذا الشرور الحضاري بالتغاضي عن خيره وتركه. فخيرات هذه الحضارة بذورٌ وحبالُ مصائد الجحيم: أبواب منتزهات الجحيم!

ويمكن التخلّص والنجاة مِن الرزق الجحيمي بعد التعرّف على جوهر العالم الحديث وتصديق معارفه ومِن ثَمَّ الإنابة والتوبه منه؛ ويعني عليه بعد تلك التغذية الكيماوية والنفطية والصناعية والسَقَرية أن يميل نحو التغذية الطبيعية. وينطوي على معرفة النفس والتفكير بدلاً مِن تلقّي المعلومات المدرسية والإعلامية المستعارة. وينقلب نحو الودّ والمحبة تعويضاً عن ذلك العشق الريائي والمشاعر الزائفة التي تَلاعب بها على عقول النّاس. وبهذا ينجو مِن مجاعة الوجود. فما دامت العلوم والمعارف الجحيمية قاطنة بالفكر والقلب، لم يمكن التخلّص والتحرّر مِن الجحيم الخارجي. إذن، فأوّل التوبة توبةٌ مِن كلّ الفهم والإدراك والمعتقدات الجحيمية. إنّها توبة عرفانية؛ توبة عن العشق والفكر والحياة الزائفة والجهنمية. وإن لم يطب رزق الإنسان، لم يطهَّر دينه. فيجب تطهير البطن والقلب والذهن مِن الرّزق الجحيمي.

الفصلُ الرّابع عشر

الحركةُ الجوهرية أو الزّمان المحمّدي

لدينا زمانان: ١. زمان نجومي؛ و٢. زمان عرفاني.

ويستخدم الزّمان النجومي في محاسبة حركة الأفلاك لتطبيق حياة الإنسان وفقَ حركة الأرض والكواكب. وهذا الزّمان نطاق فلاكة البشر وتعاسته وأَسره بقيود هذه الحركة. وهذا هو الإنسان التاريخي. والتاريخ بنفسه مَن صنع أَسر البشر في الزّمان النجومي ودوران الأفلاك.

ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس أساسُ ظهور الإنسان المفلوك والتاريخي؛ إنسان طالت إقامته في هذا الأسر الذي تحوّل إلى عبودية؛ فلا يتمكن أيّ إنسان من العيش والتفكير والشعور والعمل دون (الساعة) وكلّ ما يقوم به مِن تحرّك وعمل ناتج عن الساعة والدوران الفلكي. ويدور هذا الإنسان الفلكي حولَ نفسه كالأرض وقد جعل الشمس ميزاناً لحياته. وهذا مذهب عبادة النجوم وما أتي به الصابئون. وأهمّ صورِه التاريخية تتمثّل في عبادة الشّمس وهي مِن أقدم المذاهب البشرية كمذهب (الميثرائية) لدى الفُرس، ومذهب (الشينتو) في الشرق الأقصى، ومذهب (آمون) في مصر القديمة. وقد تغلغل هذا المذهب في قلب المذاهب الأخرى وباطنها ليخيم حتّى اليوم على أرواح البشر وفكرهم ويتحكّم بالقلوب وحياة البشر وكيانه. وأمّا طاعة النّاس مِن المذاهب التوحيدية فطاعة مشركة ومنافقة وكاذبة.

فالمذاهب التوحيدية والإبراهيمية سبيل لإنقاذ الإنسان مِن أَسر الزّمان النجومي وعبادة الشّمس. ومع هذا، فما زال النّاس - حتّى يومنا هذا - يتبعون مذهبَ النجوم بالفعل. وانطباق أعمال البشر وجميع حساباته وأفكاره ومخطّطاته ومشاعره على توالي الّيل والنّهار لا يعني سوى اتّباعه لمذهب (الصابئة[١٠]). ولأنّ في آخِر الزّمان تحوّلت حركة الأفلاك في الباطن إلى الاتجاه المعاكس صوبَ القيامة والرجعة إلى الله، فإنّ جميع الأفكار والأخلاق والآمال

[١٠] دخلت مفردة الصابئين / الصابئون ثلاث مرّات في القرآن (البقرة: ٦٢؛ المائدة: ٦٩؛ الحج: ١٧) إلى جانب اليهود والنصارى والمجوس، فهؤلاء جميعاً مِن أهل الكتاب. أمّا هناك مَن كان يعبد النجوم، واتخذ عنوانَ (الصابئة) درعاً وذريعة للدخول ضمن أهل الكتاب، وهو المراد مِن جذر المفردة العربي، فإنّ صَبَأَ تعني خرجَ عن دين آباءه. أمّا (صبأ) باللغة المندائية - وهي لغة صابئة الأهواز والعراق المندائيين - فأصلها (صوا) أي دخلَ في الماء للتعميد.

وجميع عُقود البشر الأفلاكي قد أُلغيت وهذا هو معنى العدمية المهيمنة في آخِر الزّمان والإلغاء القسري لمذهب عبادة النجوم في التاريخ ونهاية التاريخ والإنسان التاريخي النجومي: هو آخِر الزّمان!

والمعراج النبوي المحمّدي أسّس لهذه الرجعة وآخِر الزّمانية ومِن هنا أطلقوا على شريعته شريعةَ آخِر الزّمان. فمحمّد - وبلقاءه بربّه - أعاد عالم الوجود إلى ربّه. ولقاء المخلوق بخالقه هو بالحقيقة لقاء العالَم بذاته ورجعة الوجود نحو الذات. والحركة الباطنية والجوهرية تجري تحت مسامات الوجود. إنّ الحركة الجوهرية حصيلة المعراج المحمّدي وهي جوهر الزّمان الباطني أو الزمان العرفاني والرّوحاني حيث يجتذب كلّ شيءٍ نحو ذاته. إنّها حركة التقهقر وزمان القهقرى. زمانٌ ضدّ الزّمان.

وإذا انقلب جميع القِيم والمفاهيم لدى إنسان آخِر الزّمان على نفسها وأوجدت العدمية، فلا تعبّر إلّا عن أثر هذا الزّمان الباطني والحركة الجوهرية التي تحمل في طابعها سيراً معاكساً للزّمان النجومي والخارجي.

ويقف الإنسان بفهمه وتصديقه للزّمان الباطني والحركة الجوهرية أمامَ طريقين: إمّا أن يسلكَ طريق السير إلى الله ويصير (إنّا اليه راجعون) وإمّا أن يُسحق تحتَ وطأة الزّمان النجومي ويُدمّر.

والقلب هو موطن إدراك هذا الزّمان الرّجعي المتقهقر والحركة الجوهرية وهو بوّابة الرّوح الراجعة إلى ربّها في يوم كان مقداره ألف سنة بالمقادير النجومية. وهذا ما ورد في القرآن في بيان المعراج والرّوح.

وبعبارة أُخرى، يشمل المعراج المحمّدي جميعَ الكائنات والبشر. إنّه قانون يهيمن على الحياة بوجه خاصّ، وعلى الوجود بشكل عامّ. والهلكة والدمار بانتظار مَن لم يدرك هذا القانون ولم يسلّم له.

إنّ زمان القهقرى والحركة الجوهرية والرجعية هي نفس الزّمان والحركة المحمّدي. ولقد اطلق محمّد (صلّى الله عليه وآله) على نفسه (الزمان). ولأنّ الزّمان يرجع مِن حيث أتى نحو ربّه، فلا مناص للوجود إلّا باتباعه - باستثناء الكافر الذي يتخلّف عن الرجعة ليهلك في آخَر الزّمان؛ لأنّه لا ينوي الرجعة ويطلب التقدّم والتّطور ولا حصيلة لهذا التطوّر سوى الانهيار والانتحار وخسران الذات. والانتحار والإطاحة بالذات يهيمنان على حضارة آخِر الزّمان الكافرة.

والتطوّر اليوم يعني العوم خلافَ التيّار والسّير بالاتجاه المعاكس للزّمان. إنّ التطوّر الحقيقي اليوم يكمن في التقهقر إلى الوراء؛ لأنّ اتجاهات العالم تغيّرت وانقلبت جميع المفاهيم والقيم على نفسها. وهذه هي العدمية التي تسببت في كافة الأزمات الحضارية في آخِر الزّمان والانقلابات الفكرية والنفسية والأخلاقية التي استهدفت بشرَ آخِر الزّمان وسعت إلى طمس هويته.

فالرّجال أصبحوا نساءً والنساء أمست رجالاً، وصار المؤمنون كفّاراً في الباطن، وأضحى الكفّارُ مؤمنين في الباطن أيضاً. فقد تغيّر موقع الخير والشّر، وتبدّل مكان العشق والكراهية، وتحوّل موقع الواجب ومالا يجب، والوجود والعدم.

وتستحيل الإحاطة بالإنسان الحديث وعالمه دونَ فهم هذا الزّمان الرّجعي والمحمّدي. ومن لم يضطلع في فهم مفهوم آخِر الزّمان، سيعجز عن استيعاب أبسط الأمور ويكون مصيره الجنون. ويأتي إلغاء عقلانية البشر وإرادته ومشاعر الإنسان الحديث من هذا المنطلق.

إنّه الزّمان العرفاني، حيث استيعابه بمثابة إدراك نواة الحياة المركزية والكون في آخِر الزّمان. فكلُّ شيء في حال الرجوع إليه ومَن وقف أمام هذا المدّ المتصاعد، سيُسحق تحتَ عجلة الزّمان العرفاني.

ويتمكّن الإنسان اليوم وبالقليل مِن التأمل والاستغراق والشعور، أن يعثر على حضور الحركة الجوهرية والزّمان القهقرائي والرّجعي في صدره ويصغي إلى أنغام سمفونية الرجعة الرائعة بنبضات قلبه ودقّاته.

والإنسان - شاءَ أم أبى - في حال الرجوع والكدح نحو الله روحاً وباطناً، ولكنّه في الظاهر يعيش تحت أسر الزّمان الفَلَكي ويتبع قوانين التاريخ وحركة التاريخ والتي عبّرنا عنها بالأَسر التكنولوجي. إنّ هذين المسارين المغايرين في الباطن والظاهر، تنشأن الانقسام والنّفاق الروحي. ولهذا أصبح الإنسان الحديث - وفي كافّة شؤونه - موجوداً يحمل شقّين متناقضين متنازعتين. وهذا هو السرّ الذاتي لانتحار إنسان آخِر الزّمان: إنّه حذفُ ضدّ الإنسان.

وكان كلٌّ مِن هنري برجسون وإدموند هوسرل أوّلَ مَن انتبه في عهدنا إلى الزّمان الباطني وإن لم يفلحوا في استيعاب مفهومه في آخِر الزّمان وكيانه الإلهي ودائرة اشتماله وأهملوه مِن هذا الجانب، وكان على المفكّرين المسلمين أن يكتشفوه، ولكن غفلوا عنه.

واكتشاف الزّمان الباطني في الحقيقة ما هو إلّا مكاشفة عرفانية ولهذا فقد أحدثت هذه المكاشفة ثورةً عارمة في معتقدات برجسون وهوسرل الماورائية فعزّزت دعائمها الإيمانية مع أنهما أخفقا في استيعاب حقيقة هذه الظاهرة مِن الجانب الماورائي والروحاني والدّيني. ولذلك أهملت هذه المكاشفة العظيمة التي تشكّل برأيي أكبرَ مكاشفة علمية، وعرفانية، وفلسفية في عالمنا المعاصر، وتُركت سدى ولم يتابعها أحد مِن بعدهما.

وأوّلُ مَن اكتشف الزّمان الباطني أو الزّمان الإلهي بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وعليّ (عليه السّلام) والمخلصين في صدر الإسلام والأئمة الأطهار، هم العرفاء المسلمون. ومع الأسف، فإنّ هؤلاء العرفاء لم يتمكّنوا - أيضاً - مِن استيعاب حقيقة هذا الزّمان القرآنية والماورائية والأُخروية وإدراكها أو تقديم تفسير لها. وعلى الرغم مِن هذا الفشل، فالعرفان الإسلامي ومكاشفاته في العالم الإسلامي هي ثمرة هذه المكاشفة والحركة الجوهرية.

ولقد عجز صدر الدين الشيرازي[11] باعتباره أشهر شارح للحركة الجوهرية بين الفلاسفة من استيعاب حقيقة هذه الحركة الأخروية حيث تمسّك لعجزة بالتبريرات الإغريقية والمصطلحات الهورقليائية، فما قاله لم يفهمه هو ولا الآخرون. وعلى الرّغم من ذلك فإنّ الحكمة الصدرائية أتت مِن ملامسته للزّمان الباطني.

ومن استوعب الزّمان الباطني وعثر على مدخله في ذاته واستقرّ بمساره فقد بلغ لقاء الله.

ويقف محيّ الدّين بن عربي على رأس مكتشفي الحركة الجوهرية والزّمان القهقرائي مِن بين العارفين المسلمين. وقد حدثت جميع مكاشفاته الماورائية وإنجازاته في نطاق الزّمان الباطني والحركة الرجعية.

---

[11] ولد في ٩ جمادى الأولى ٩٨٠هـ وهو محمّد بن إبراهيم القوامي الشيرازي (١٥٧٢ – ١٦٤٠م) يعرف لدى الإيرانيين بـ(مُلّا صَدرا). زاول دروسه في حوزة أصفهان العلمية - عاصمة الدولة آنذاك. وحضر محاضرات فقيه عصره (الشيخ البهائي)والذي حثه على حضور درس الامير داماد) في الحكمة، وكان هذا الأخير ممن قدّم آراء وإنجازات غير مسبوقة في الحكمة، مما كان له أكبر الأثر بشحذ عقلية (صدر الدين الشيرازي) والذي يعتبر هذا الأخير بدوره خاتمة حكماء الشيعة، إذ جمع بين فرعي المعرفة النظري والعملي. وينسب إليه نهج الجمع بين الفلسفة والعرفان والذي يسمى بالـ(حكمة المتعالية).

ولقد وضعت - أنا بِدوري - ومِن عنفوان شبابي جميع حراكي المعرفي حول الحكمة الزّمان وقد اطّلعت مِن هذه البوابة على الحركة الجوهرية والزّمان الرجعي والرّوح العروجية وما توصّلت إليه وما شاهدته وما فهمته وما بلغته كان ثمراً لتلك المكاشفة.

واكتشافي لآخِر الزّمان حول الإنسان والعالم والتاريخ كان أيضاً مِن نتاج تلك المكاشفة الباطنية، ثم رأيت تجانساً بين الروايات الإسلامية حول آخِر الزّمان وهذه المكاشفات، وصدّقتها وفُتِحَ باب القرآن بوجهي لأوّل مرة وشاهدت القيامة وفهمتها ثم أدركت قيامَ الساعة. كما توصّلت بأنّ السبيل الوحيد لاستيعاب الحركة الجوهرية والزّمان الرّجعي لا يمكن أن يحدث إلّا من خلال المعارف الأصيلة والأسرار القرآنية وأنّ إدراك سِرّ وجود إمام الزّمان والمنقِذ الموعود لا يكون إلّا بالوقوف على هذه الحقيقة؛ لأنّ وجوده المبارك يمثّل السبيل السالك للحركة الجوهرية والزّمان العروجي ولا يمكن التوجّه نحو لقاء الله إلّا بلقاءه؛ لأنّ الالتحاق بهذا الركب هو الالتحاق بوجوده. فهو جوهر الحركة الجوهرية ومدخل الحركة الرّجعية والزّمان العروجي. وتعرف عبارة «والكافرُ مَن لا إمامَ له» مِن هذه الزاوية

وآخِر الزّمان ساحة المواجهة بين الزّمان النجومي والزّمان الروحاني؛ والزّمان الفلكي والزّمان النجومي والالتحاق بالحركة الجوهرية والزّمان الرجعي. ولا يمكن الخروج والعروج إلّا بمساعدة إنسان نجى مِن الزّمان النجومي وسلكَ الطريق (الراجعون نحو الله)؛ عارف مِن ثلة الحركة الجوهرية والعروج الرّوحاني. ويعدُّ كلّ إنسان خارجاً وعارجاً منقذاً بجدِّ ذاته. والإمام المهديّ الموعود قطب هذا الإنقاذ وكماله، حيث يلتفّ حوله سائر المنقِذين ويتّصلون بموكب الحركة الجوهرية والزّمان الروحاني.

وعالَمنا اليوم ساحة لمواجهة «إنّا لله» مع «إنّا إليه راجعون». فالزّمان الفلكي وحركة التاريخ تمثّلان (إنّا لله) بينما الزّمان الرّوحاني والحركة الجوهرية تمثلان (إنّا إليه راجعون). هذي هي المواجهة بين التقدّم والتقهقر.

وآخِر الزّمان هو آخِر عمر (إنّا لله وإنّا منه مبتعدون) وانطلاقة نحو (إليه راجعون).

إذن، فعِلم معرفة آخِر الزّمان عِلم النّجاة الوحيد. إنّه عِلمٌ يهدي إلى طريق الفلاح فلا نجاة إلّا به.

وهذه الرّسالة، هي رسالة النجاة والفلاح.

الفصلُ الخامس عَشر

وحدةُ آخِرِ الزّمان

بسم الله الوحيد

١. الوحدة تعني الوجود، وعدم الوحدة هو العدم. وأمّا الوجود المتمخض مِن الوحدة يجعل الإنسان عاشقاً للعدم وسالكاً في وادي الفناء وهو وادي الله.

٢. لم يرغب أحدٌ بالوحدة وإن ادّعى ذلك، فإمّا أن يكذب متعمداً، وإمّا أن لا يستوعب ما يقول.

٣. والوحدة أعظم جبر ذاتي يهيمن على كيان الإنسان، ولهذا يهرب النّاس ذاتياً مِن هذا الجبر. وهذا هو الكفر بمعنى إنكار النّفس؛ وهذا يعني أنّ الإنسان لا يرغب بأن يكون موجوداً، بل يهرب من الوحدة. إذن، فجبرُ الوحدة هو جبرُ الوجود.

٤. والهاربون مِن الوحدة، هم عبدةُ العدمية. وهذا أساس الكفر؛ لأنّ جميعَ ذنوب البشر وسيّئاته نتجت عن الهروب مِن الوحدة: الكذب، والاعتداء، والرّياء، والدعارة، والفسق، وما إلى ذلك.

٥. ومسار الكمال الإنساني، هو مسار الوحدة. ولذلك فمسار التاريخ البشري هو مسار وحدته المتزايدة. وإنسان آخِرِ الزّمان أكثر إنسان في التاريخ عزلة؛ لأنّ آخِرِ الزّمان مشهد حضور الله، والله الوحدة المحض وحضوره يوجِبُ وحدة الإنسان كي يستعدّ للقاء الله وإدراك حضوره.

٦. ولقاءُ الله هو لقاء الوجود، وعلى الإنسان أن يوجَد كي يلتقي بجمال الوجود. وهذا هو سِرّ وحدة الإنسان.

٧. والوحدة هي كونُ الإنسانِ جسداً، وكلُّ شيء في العالم يمثّل جسداً ذات وجود. ولا يعي أيُّ موجود وحدتَه ولا يتحكّم بها. إذن، هو غير موجود أساساً وإنّما يصدر إرهاصات مِن الوجود - وليس الوجود نفسه.

٨. ينحصر الوجود بالإنسان فحسب؛ لأنّه يعي نفسَه ويشرف عليها؛ ولأنّ الله هو صاحب هذه الرّوح.

٩. إذن، فمَن لم يشعر بالوحدة، لم يرتقِ إلى مرتبة الإنسان بعدُ، بل ما زال يقضي الحياة الحيوانية والنباتية والجمادية.

١٠. وقد خُلق الإنسان ليتحلّى بالوجود. والخلق لا يعني - بالضّرورة - الوجود؛ بل يعني الوحدة.

١١. وشعور الإنسان بالوحدة هو جوهرُ الوجود. والشّعور بالوحدة هو الشّعور بالوجود. إنّه شعور مرٌّ ومؤلم.

١٢. ولباطن الإنسان عينٌ تلاحظه وهي عين الله. وعلى ضوءها يكسب الإنسان الشّعور بالوحدة والوجود ويبحث عن الهروب منها. إنّه هروب مِن الله والذات إلى أحضان الشّيطان بصفته ألدّ أعداء وجود الإنسان.

١٣. فالناس على أجناس. أمّا الغالبية فدون وجود ولا تعي بذلك. وهناك أقلية موجودة؛ وحيدة ولا ترغب بالوجود. وهناك مَن عددُهم لا يتجاوز عدد الأصابع، موجودون يقيمون في كياناتهم. هم الإنسان الكامل وخليفة الله والموجودون في عالم التراب؛ أولياء الله وأحباء الوجود الذين أدركوا الإنسان والحبّ بالوجود.

١٤. إنّ هؤلاء الموجودين يتحوّلون إلى أقطاب عالم الإمكان وملاذ للتوسّل والتوّكل وتحصّن الكائنات. والكائنات وجود مفترَض وموضوع، يطلب وجوده وكيانه من اللوذ واللجوء إلى هؤلاء. وتواجد هذه الكائنات يعني ظهور الجنة أجراً لأولئك الموجودين. وخُلقت الجنة أجراً للإنسان القابل للوجود، كما خُلقت النّار جزاءً للهارب مِن الوجود.

١٥. وينظر الله إلى جميع النّاس ليوجِدَهم «يا أيها الذين آمنوا ... قولوا انظرنا[١٢]» (القرآن الكريم). وكلما ازداد اشتياق النّاس للوجود، ازداد الله نظراً إليهم وعناية. وعنايته تعني مضاعفة وحدتهم. وهذا هو كلُّ تسلسل مراتب الإنسانية لبلوغها الرّشد والاعتلاء الروحي والتربية الربوبية.

١٦. وفي الحقيقة، فإنّ جميع سُبل دين الله هي سبل توحيد الإنسان. ومَن يهرب مِن دين الله ويُشرك به، يفرّ - في الواقع - من الوحدة ويبيع نفسه إزاء الشّرك بالله - تقليصاً لوحدته. هذي هي قصة الشِّرك.

١٧. ومِن هذا المبدأ، فإنّ الموجة الأولى للتديّن والإخلاص تتمثّل في مكافحة العنصرية والنَسَب - كما فعلها الرُّسل كافّة. إنّها نواة الوحدة المركزية.

---

[١٢] **يقتطف الكاتب بعضَ الأجزاء مِن الآيات، ويمزجها ببعض آخَر من الآيات وفهمه منها، ولذا لم نذكرها في الهوامش. أمّا هذه الآية بكمالها: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا» (سورة البقرة: ١١٠).**

١٨. إذن، فالألم الحاصل مِن الوحدة ألم الذّات الواعية بنفسها والمدركة والمستقبلة لله في صميمها. والله ينظر أولاً ثم يأتي نحو الإنسان رويداً رويداً، ثم يدخل في كيانه ويقيم فيه. وهكذا يمسي الإنسانُ وجوداً وذات وجود.

١٩. ومن هنا كان (الموجود) من أسماء الله الحسنى، ولقباً من ألقاب رجال الله.

٢٠. وكيف وبامتلاك أيّ صفات يمكن للإنسان أن يمسي وحيداً، وماذا سوف يحلّ به في هذا المسار والمضمار؟ وما هي دلالات نظر الله إليه، وحضور الله في الإنسان؟

٢١. أمّا في العالم الخارجي، فيصبح الإنسان وحيداً بفعل الفقر والمرض وانعدام الأمان. حيث يفرّ الجميع في هذا الحالة من الإنسان - ولا سيّما أحبّاءه.

٢٢. ويبتعد الأقرباء ممن وقع في الخطر وأحاطت به المصائب واعتراه المرض والفقر والفضيحة والاتهام واللوم. إنّها مِن علامات حضور الله في الإنسان ونظره إليه: البلايا!

٢٣. والبلايا تعني قول الإنسان لله (بلى[١٣])، وقول الله للإنسان (بلى)، ليكون الإنسان خليفة الله؛ أي لينعم بالموجودية ويحظى بالوجود، وحياة الخلود.

٢٤. وفي الواقع يستحقّ الإنسان الحياة والوجود بمستوى تعرّضِ وجوده الجسدي والحيواني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأمني والصحي والمعيشي إلى خطر محول ومهلك.

٢٥. أي بمقدار ما تتعرض الحياة الدنيوية والمؤقتة لخطر مُميت، تنطلق الحياة الحقيقية والأبدية والإلهية، مما يعني شروق البقاء مِن مغرب الفناء وهي خلقة الإنسان مِن العدم.

٢٦. وتكتنف الخلقة الإنسانية والروحية والأبدية بالكثير مِن الآلام والمعاناة ومَن يرفض الخوض في غمار هذه المعاناة في حياة الدنيا، يبتلي بعذاب الآخرة في جهنم، وهي الكينونة بطريقة أخرى؛ لأنّ الله أراد أن يبذل الحياة لكلّ مَن يُطلق عليه (الإنسان) - جبراً أو اختياراً!

---

[١٣] قول (بلى) في العربية والقرآن، للسؤال والاستفهام الانكاري، ومن الأصح أن يقال (نعم) - ما دامت القضية تحظى برضى الله والإنسان، لكن بما أنّ الكاتب لاحظ التلاعب بالمفردات بين (بلايا) و(بلى)، ارتئينا (بلى) بدلَ (نعم).

٢٧. واختيار الكينونة والوجود الجِناني والعرفاني يعبر مِن وادي الوحدة ومفازتها نحو جنّة الوجود والخلود وهي نطاق إقليم الله. أمّا في غير هذه الحالة، فالمصير نحوَ النّار والمقام فيها، ثمّ في إفاضة الوجود والخروج مِن الجحيم لبلوغ الوجود الأمثل وجنّة الله ونطاق الحياة المطلقة.

٢٨. إذن، فالجنّة والنّار والكفر والإيمان خياران للوجود والحياة يختارهما الأنسان: وجود فردي؛ ووجود جماعي.

٢٩. ولقد حذر الله المؤمنين مِن اتّباع الغالبية (المجتمع) منعاً لدخولهم في كفرهم والوصول إلى الجحيم؛ لأنّ في اتّباع النّاس هروباً من الوحدة والبحث عن الحياة الإلهية.

٣٠. وكلّ ما حصل في تاريخ الحضارة البشرية حتّى يومنا هذا والحداثة والقرية العالمية والإمبريالية العالمية حصل جرّاء فِرار الإنسان من الوحدة؛ وهذا يعني باختصار، أنّ الحضارة وليدة الهروب مِن الوحدة ومظاهرها المعاكسة للوجود والمخالفة لله، وتتجلّى في وجود الأحزاب والاتحادات والنِقابات والديموقراطيات والعولمة.

ومع كلِّ ما قلناه، فإنَّ حضارةَ آخِرِ الزّمان ليست سوى حضارة ساحة القيامة وتجلّي الرّب ومشهد وحدة الإنسان المفروضة والجبرية. فظاهر هذه الحضارة الحديثة في عراك وسجال مع باطنها؛ لأنّ في ظاهرها هروب مِن الوحدة، وفي باطنها استرسال واتّساع للوحدة. إنّه السّرُ في تحطّم هذه الحضارة العالمية وانهيارها. وكلُّ هذا البؤس والشقاء والحروب والأزمات والمفاسد والانتحار إنّما نبعَ مِن ذلك التناقض الكامن في جوهر هذه الحضارة الحداثوية؛ وينهار صرح هذه الحضارة الخارجي والمتبلور في الديموقراطية والعالمية والجماعية لتُساق جميع البشرية الظاهرة والباطنة زمراً نحو التفريد والتجريد؛ إنّها أعتاب ظهور المنقِذ الموعود ومشارف مجيء الناجي الموجود والكيان الكامل الذي يُنقذ البشرية مِن الهلاك ويهبهم الوجودَ والحياةَ السعيدة المثالية.